الحائزة على جائزة كتارا للرواية العربية 2018 - فئة روايات الفتيان

الدكتورة سناء شعلان

أصدقاءُ ديمة

رواية للفتيان

كتارا
katara
دار كتارا للنشر
Katara Publishing House

أصدقاءُ ديمة

رواية للفتيان

الدكتورة سناء شعلان

كتارا
katara
دار كتارا للنشر
Katara Publishing House

هذه الرواية حائزة على «جائزة كتارا للرواية العربية 2018»

«فئة روايات الفتيان»

كتارا
katara
جائزة كتارا للرواية العربية

أصدقاءُ ديمة

رواية للفتيان

المؤلف: **الدكتورة سناء شعلان**

الغلاف للفنانة: /////////

عدد الصفحات: **210 صفحات**
رقم الإيداع: 2019/000
الرقم الدولي: **(ردمك)**
ISBN/0000000000
الطبعة الأولى: **2019م**

جميع الحقوق محفوظة للناشر

كتارا
katara
دار كتارا للنشر
Katara Publishing House

قطر، الدوحة، المؤسسة العامة للحي الثقافي «كتارا»، مبنى 15، ص ب: 16214
هاتف: 444080045-974+ | البريد الإلكتروني: info@kataraph.com

دار كتارا للنشر ليست مسؤولة عن آراء المؤلفين وأفكارهم.
إن الآراء المعبر عنها في هذا الكتاب تعكس وجهات نظر المؤلفين ولا تعكس بالضرورة آراء دار كتارا للنشر.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص قرائية أو أي وسيلة نشر أخرى، أو حفظ معلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

كتارا
katara
دار كتارا للنشر
Katara Publishing House

2019

المعاقون الحقيقيُّون هم من فقدوا قدراتهم على حبِّ النَّاس والإنجاز وفعل الخير، ومرُّوا في الحياة دون أن يتركوا بصمة خير على درب الحضارة البشريَّة.

ديمـــة

الفصل الأول

بيت ديمة

"حيثما تكون الرّحمة والمحبّة يكون بيت ديمة".

ديمة

اسمي ديمة

اسمي ديمة، وعمري الآن عشر سنين ونصف، وهذا المنزل القديم اسمه بيت ديمة، وهؤلاء الأطفال والمعلّمات هم أصدقائي في بيت ديمة. وُلدتُ مصابة بمرض (متلازمة داون)، هذا هو اسم مرضي الذي عَرَفتُ الحياة به.

والدي يقول إنّني فتاة مختلفة ومميّزة؛ لأنّني مصابة بهذا المرض، ولذلك عليّ أن أشعر بالسّعادة؛ لأنّني طفلة مختلفة ومتميّزة عن غيري من الأطفال؛ فالله يميّز الأطفال الذين يحبّهم بما يشاء من الميزات والفوارق، ولذلك ميّزني بهذا المرض؛ لأنّه يحبّني.

ويقول لي كذلك إنّ عليّ أن أجد طريق السّعادة نحو نفسي بإيماني العميق بأنّني أستحقّ الحياة، وأنّني غير ناقصة أو متأخّرة عن غيري من الأطفال.

وأنا أثق في كلّ ما يقوله أبي الذي وجدتُ معه وأصدقائي المتميّزين في بيت ديمة، طريق السّعادة والفرح والإنجاز؛ لقد اكتشفنا أخيرًا أنّ

علينا أن نصمّم على أن نحظى بحقّنا في الحياة والسّعادة، وأن نشارك في بناء المجتمع، حتى وإن كنّا مختلفين، وأن نؤمن بأنّ اختلافنا ليس جريمة أو عيبًا أو نقصًا، ولكنّه واقع يجب أن نتأقلم معه.

لستُ أقلّ من غيري من الأطفال في الإنسانيّة والجمال والذّكاء والإبداع وحبّ الحياة، لكنّني أرى الحياة بشكل مختلف، وأملكُ طاقات خاصّة؛ لأنّني طفلة من أطفال (متلازمة داون).

أنا أرى الحياة بقلبي الطّيب الذي لا يعرف الحقد والغيرة والحسد والشّر، ولم أؤذِ بشرًا أو حيوانًا أو طائرًا أو نباتًا أو منجزًا طَوال حياتي؛ أنا طفلة قلبها طاهر، لا يضيق، ولا يعجز، ولا يهرم، ولا يعرف الحقد؛ لذلك حباني الله موهبة خارقة استثنائيّة تتمثّل في قدرتي على سماع أحاديث البشر مع أنفسهم، وقراءة أفكارهم وأحاسيسهم، ومعرفة ما يدور في أعماقهم ممّا يخفون ويضمرون من الأمور والحقائق والأحاديث والأفكار.

الآن أعرفُ أنّكَ يا من تقرأ كلماتي قد بدأتَ تتساءل عن موهبتي وعن أسرار حياتي في بيت ديمة، أليس هذا ما يدور في ذهنكَ في هذه اللّحظة؟ بالطّبع هذا ما يدور في خَلَدِكَ؛ فأنا أعرف ما يدور في أعماق كلّ من أقابله أو يقرأ كلماتي.

وهذه هي قصتي: عرف والدي عن موهبتي الفريدة النّادرة عندما أنشأ مدرسة بيت ديمة، وبدأ يأخذني وأصدقائي في رحلاته السّريّة التي قادتني وإيّاهم إلى السّعادة والفرح والخروج من العزلة والمشاركة في بناء المجتمع.

لقد قمنا بهذه الرّحلات السّريّة بمساعدة والدي الذي فتح الأبواب لي وللأطفال المختلفين الذين أخرجهم من سجونهم في بيوت أهاليهم بجريمة أنّهم يعانون من إعاقاتٍ ما، وأنشأ بيت ديمة من أجلي ومن أجلهم ليقودنا جميعًا نحو النّور والحرّيّة والفرح.

لقد اكتشفتُ أنّني أملكُ هذه الموهبة الخارقة منذ كنتُ صغيرة جدًّا، لكنّني لم أُخبر أحدًا عنها، فمن يريد أن يسمع عن موهبة طفلة يسمّيها الجميع «معاقة»؟ هذه الموهبة التي أملكها كانت تسليتي الوحيدة التي ألهو بها مع عنزتي الجميلة «شقراء»، فقد كنتُ أجيدُ أن أعرف ما تفكّر به عنزتي الأثيرة، فأعرف أيّ الاتّجاهات والطّرق ستسلك في هروبها منّي ونحن نلعب لعبة الاستغمّاية، فأمسك بها بسهولة، وأغرقها بقبلاتي المحبّة لها.

هذه الموهبة كانت سبب عزلتي وابتعادي عن النّاس؛ فقد كنتُ أسمع ما يقوله الأطفال والأقارب والجيران والناس عنّي؛ فعرفتُ أنّهم يحتقرونني دون أن أفعل أيّ سلوك خاطئ، ويرفضون ملامحي المختلفة، وينزعجون من مظهري الخارجيّ ومن تلعثم لفظي وبطء حركات جسدي، ولذلك يضجرون منّي، فيرفض الأطفال اللّعب معي، وينبذني الكبار؛ لذلك بقيتُ أعيش وحيدة في غرفة صغيرة في بيت «مليحة» جدّتي لأبي بعد أن سافر أبي إلى أوروبا بحثًا عن علاج لمرضي بعد أن ماتتْ أمّي، وتركتني حزينة، فبقيتُ وحيدة دون إخوة أو أصدقاء، حتى المدرسة لم أذهب إليها؛ إذ رفضت المدرسة الحكوميّة

أن تَقْبلني بين طلبتها بسبب حالتي المرضيّة، ولم تكن في مدينتنا أو في وطني كلّه أيّ مؤسّسة تعليميّة أو مدرسة لأمثالي من الأطفال المصابين بمرض (متلازمة داون).

ظللتُ أعتقد أنّني الطّفلة الوحيدة في هذا العالم التي تعاني من هذا المرض، وبقيتُ أتساءلُ: أهناك أطفال يشبهونني في هذا العالم؟ وإن كان هناك وجود لهؤلاء الأطفال المشابهين لي، فلماذا تراهم يفعلون في غرفهم وهم فيها وحيدون مثلي؟!

عنزتي شقراء هي الكائن الصّناعيّ الوحيد الذي كنتُ أقرأ كلماته فأسعد، فعندما أطّلع على أعماقها المصنوعة من الألمنيوم الرّقيق المزوّدة بحسّاسات نابضة متّصلة بمزوّد الطّاقة فيها، كنتُ أعرف أنّها تحبّني بصدق، وتراني طبيعيّة، وتسميني حبيبتي ديمة، وتنتظر قدومي بلهفة ومحبّة لألعب معها في حديقة بيت الجدّة مليحة، وتنام إلى جانبي في سريري دون أن تكره ملامحي، ودون أن تراني مختلفة، ودون أن تلقّبني بلقب معاقة أو متخلّفة أو منغوليّة كما يلقّبني معظم الأطفال علنًا، ويسميني الكبار سرًّا عندما يناجون أنفسهم. فأسمع بموهبتي الخارقة ما ينعتونني به من نعوت جارحة لروحي، فأحزن بشدّة، وأهرب منهم، وأحبس نفسي وحيدة في غرفتي، فلا يراني أحد، ولا أرى أيّ أحد ممّن لا يحبونني، ويرفضون وجودي بينهم.

أمّا جدّتي مليحة، فكانت تحبّني حبًّا جمًّا مخلصًا، وتعاملني بلطف،

وتقوم على رعايتي، وتحكي القصص لي في كثير من اللّيالي، ولكنّها كانت تقول في داخلها إنّني مصيبة أصابت ابنها، وتتمنّى لو أنّني لم أكن مصابة بمرض (متلازمة داون).

عندما أقرأ هذا الكلام في نفسها، أصاب بمزيد من الحزن والكآبة والوحدة. لقد كانت تكرّر هذا الكلام في أعماق نفسها دون توقّف، وكنتُ أسمعه جيدًا بموهبتي الفريدة، فتزداد رغبتي في الانطواء والوحدة والهروب من أمام النّاس بمن فيهم جدّتي مليحة.

أعترفُ بأنّني لا أجيد فهم البشر الذين حولي، ولا أستطيعُ تفسير معظم أحوالهم وسلوكيّاتهم وأفعالهم ورغباتهم وأحلامهم وصراعاتهم، ولا أدرك كذلك سبب تطاحن البشر وتخاصمهم، بل لا أعرفُ لماذا يضرب طفلٌ طفلاً آخر؟ ولماذا يعتدي إنسان على حيوان أو شجرة أو زهرة؟ كذلك لا أفهم لماذا يبادرني من حولي -في غالب الأحيان- بالكره والنّفور؟ فأنا أحبّ النّاس جميعًا، ولا يحتمل قلبي الصّغير الكره والحقد والخصام، وأهرب من كلّ شرّ، وأحبّ الفراشات والشّمس والجدول والأطفال والحيوانات والمطر والعيد وقوس قزح والهدايا وأبي وجدّتي مليحة وعنزتي شقراء، كما أحبّ أمّي عفاف الرّاحلة إلى العالم الآخر حيث يعيش الأموات.

أبي يقول إنّني أجهل كيف يكون الحقد والكره والغيرة والحسد والشرّ والنّميمة؛ لأنّني أملك قلبًا طيّبًا لا يمكن أن يتلوّث بالشّرور؛ ولذلك فأنا متميّزة في نظره.

عنزتي شقراء

عنزتي شقراء لم تكن عنزة اعتياديّة، بل هي واحدة من اختراعات أبي العالِم «شجاع الورديّ»، هي كائن آليّ على شكل عنزة شقراء، مظهرها يخدع الرّائي الجاهل بحقيقتها، فيعتقد أنّها عنزة من لحم وجلد وشعر، ولكنّ الحقيقة أنّها كائن آليّ مصنوع من المعدن والأنسجة الكهربائيّة والمنظومات الضّوئيّة ذات الخلايا الصّناعيّة عالية التّكثيف في التّخزين والاسترجاع للمعلومات، وجلدها وشعرها مصنوعان من اللّدائن الصّناعيّة الرّخوة ذات الفراغات المتحرّكة التي تسمح بنقل الحرارة المولّدة داخل هيكلها المعدنيّ لتشيع فيه حرارة طبيعيّة، إنّها باختصار عنزة من الخارج، وكائن آليّ من الدّاخل.

وقد صنعها والدي خصّيصًا من أجلي، ووضع فيها خلاصة علمه وتجاربه حول صناعة الكائنات الآليّة، ثم غذّى ذاكرتها بخلايا معلوماتيّة عملاقة، وربطها بتوصيل لاسلكيّ متّصل مع كثير من محرّكات البحث في الشّبكة العنكبوتيّة لتحدّث معلوماتها دون توقّف ما دامتْ أليافها المشعّة الكهروذريّة تزوّدها بالطّاقة المتجدّدة التي لا تنتهي ولا تفنى، وتظلّ تستولد نفسها من ذاتها.

والإبداع الأهمّ في هذا الكائن الآليّ أنّ والدي قد برمجه بمنظومة صوتيّة قادرة على الكلام باللّغات البشريّة الحيّة جميعها، بل هو مبرمج بشرائح تاريخيّة توثيقيّة للّغات القديمة جميعها، وبذلك فعنزتي شقراء

قادرة على الحديث بأيّ لغة كانت، كما أنّها قادرة على قراءة أيّ مادة مكتوبة، ولو كانت مخطوطة مضى على كتابتها أزمان طويلة.

وقد برمج والدي عنزتي شقراء على حبّي ومساندتي ودعمي وحمايتي والإخلاص لي والتّفاني من أجل إنقاذي من أيّ شر يحيط بي، وجعلها الرّاعية لي في غيابه وغياب جدّتي، وقد كانت الرّفيق الدّائم لي الذي لا يفارقني ليل نهار، ويلازمني في أوقاتي جميعها. حتى باتت عنزتي شقراء هي صديقتي الوحيدة والأثيرة التي تهبني السّعادة التي لا أشعر بها إلّا معها.

لقد أهداني أبي هذه العنزة في يوم عيد ميلادي الرّابع، ومنذ ذلك الوقت لم تفارقني شقراء حتى في ساعات نومي؛ إذ تنام معي في سريري.

أبي يقول إنّه سيطوّر في المستقبل صناعة الكائن الآليّ ليكون عونًا للإنسان، لا سيما للأطفال الذين يعانون من إعاقات جسديّة أو عقليّة، وهو يبذل جهودًا موصولة لأجل الوصول إلى تصنيعه بتكلفة مناسبة للقدرات الشّرائيّة لجمهور المواطنين كي يستطيعوا اقتناء هذا الكائن، وقد يحدث ذلك في المستقبل القريب.

أمّا الآن فأنا وحدي من تملك كائنًا آليًّا يكون في دعمها بشكل دائم، وأنا وحدي أعلم أنّ والدي قد أنفق مبالغ ماليّة كبيرة ممّا يملك من مال لأجل الإنفاق على مشاريع اختراع هذا الكائن، ومن ثمّ تصنيعه ليحقّق لي حلمي بأن أملك عنزة شقراء جميلة تكون صديقة مخلصة لي.

نظريّة (الانزلاق في الفجوات النّورانيّة)

أبي دكتور شجاع الورديّ هو الإنسان الوحيد الذي كنتُ أسمعه يدعو الله في سرّه كي يطيل في عمري، وكان يشكره بإخلاص؛ لأنّه وهبه ابنة جميلة مثلي، حتى وإن كانت تعاني من إعاقة عقليّة، وكان يرفض بشدّة وغضب أن ينعتني أيّ أحد بصفة متخلّفة أو مجنونة أو غبيّة، ويصمّم على أن ينعت حالتي بنعت حالة إنسانة مختلفة، وقد سمعته يدعو الله طويلًا، ويتضرّع له كي ينجّيني من الموت عندما دخلتُ في الماضي إلى غرفة العمليات لأجل إغلاق فتحة القلب التي تهدّد حياتي بالانتهاء.

يومها اكتشفتُ -لأوّل مرّة في حياتي- موهبتي الاستثنائيّة في قراءة دواخل البشر. كان عمري عندها ثلاث سنوات، وكنتُ أسمع أبي يدعو لي سرًّا بأن أنجو من الموت.

كذلك كنتُ أسمع تلك الحوارات السّريّة التي يناجي الموجودون أنفسهم بها، فعرفتُ أنّ الطّبيب الذي سيجري العمليّة لي يتوقّع أن أموت خلالها بسبب ضعف جسدي وشدّة إرهاق قلبي، وسمعتُ إحدى الممرّضات تعجب من اهتمام أبي وأمي ببقائي على قيد الحياة على الرّغم من أنّني مصابة بمرض (متلازمة داون)، وسمعتُ ممرّضًا ينعتني بصفات جارحة، وسمعتُ طبيبة جميلة حنونة تسألُ الله أن يساعدني، وتسميني ملاكًا جميلًا كما كانت تسميني أمّي في الماضي قبل أن ترحل عن هذا العالم،

ويرحل معها حبّها الكبير لي الذي كان يدفعها إلى أن تراني طفلة طبيعيّة لا منقوصة، فتحبّني بعمق على الرّغم من إعاقتي الملازمة لي.

أُجريت العمليّةُ لي، ولم أمتْ، وأنجاني الله من الهلاك، وأسماني أبي من يومها ملاكي ديمة، وأسميته أبي الحنون، ولكنّني لم أخبره بموهبتي بقراءة ما يدور في صدور البشر من خفايا ومعرفة القادم من حيواتهم، وعرفتُ حينها أنّه سيسافر إلى أوروبا ليبحث لي عن علاج هناك، وكدتُ أرجوه أن يبقى إلى جانبي وألا يسافر، لا سيما أنّ أمّي ستموت في أثناء غيابه في سفره، وسأظلّ وحيدة في البيت مع جدّتي المسنّة، ولكنّني ما كنتُ أجيد الكلام بسبب مرضي لأسأله البقاء وعدم السّفر.

سافر أبي، وتركني وحيدة، وماتتْ أمّي فيما بعدُ بمرض عارض ألمّ بها، وبقيتُ أعيشُ وحيدة في عزلة في كنف جدّتي مليحة التي تعاملني بحبّ ورحمة، ولكنّها على الرّغم من ذلك لا تراني إنسانة لها مستقبل أو لها أمل في الحياة، وتشعر -دون انقطاع- بأنّني قد خيّبْت أمل أسرتي التي كانت تحلم بمولود ذكر يكمل سلالة العائلة من العلماء الصّالحين المشهورين، ولا ترغب بأيّ شكل من الأشكال في طفلة تعاني من مرض (متلازمة داون).

أبي عالم مشهور في علم الفيزياء الكونيّة، وله اختراعات واكتشافات مهمّة في كثير من حقول هذا العلم، وهو يملك كثيرًا من النّظريّات المهمّة في الفيزياء الكونيّة، كما أنّه يبشّر باكتشافات خطيرة في نسبيّة الزّمن وإمكانيّة التّنقّل عبره.

لكن منذ وُلدت انصرف اهتمام أبي بشكل كامل إلى دراسة علم الأحياء والجينات والهندسة الوراثيّة أملًا منه في أن يجد علاجًا لحالتي المرضيّة، وبعد أبحاث مطوّلة وصل إلى أنّ محاولة العبث والتّغيير في جينات الإنسان بهدف تغييرها بعد ولادته سوف يلحق دمارًا كبيرًا بجسده قد يصل إلى حدّ موته، وأنّ تعديل جيناته الوراثيّة بهدف انتقاء الأفضل وتنحية المرفوض منها يجب أن يتمّ عبر عمليّة مدروسة في معمل علميّ مزوّد بكافّة الآلات الدّقيقة والمتقدّمة لأجل عزل الجينات المرفوضة المحمّلة في شيفرة الخليّة البشريّة، وانتخاب الأفضل من صفاتها، ثم نقل هذه الصّفات الوراثيّة إلى الخليّة الحيّة من جديد قبل مرحلة التّخصيب حيث البويضة تنتظر التّلقيح لتبدأ رحلة التّكوين والحياة المحمّلة بالصّفات الوراثيّة المنتقاة والمعدّلة جينيًّا.

لقد طوّف أبي في كثير من عواصم أوروبا، وتأكّد أنّ لا علاجَ شافيًا من مرض (متلازمة داون) في هذه الدّنيا، كما ليس هناك أيّ علاج شافٍ من معظم الإعاقات الجسديّة والعقليّة التي يُصاب بها الأطفال المختلفون بسبب الخلل في جيناتهم الوراثيّة.

لقد بدأ أبي بزيارة مؤسّسات رعاية الأطفال من ذوي الإعاقات الذين كان يسمّيهم بالأطفال المختلفين، وبدأ يتعلّم من تجارب تلك المؤسّسات في رعاية الأطفال المختلفين ودعمهم وتعليمهم لأجل أن يقوموا بدورهم الإنسانيّ في البناء، كي لا يكونوا مجرّد أعباء على

المجتمعات وعلى الأفراد وعلى أنفسهم، وعندها اكتشف أنّ الدّعم الذي يقدّمه الطّفل المختلف إلى أخيه الطّفل المختلف هو في قمّة الأهمّية والفائدة والفعالية في تنمية تفاعل الطّفل المختلف مع مجتمعه ومحيطه ونفسه وأقرانه وأترابه.

عاد أبي إلى الوطن بعد سفر طويل، وأخذ إجازة من عمله في المعهد الوطنيّ للدّراسات الكونيّة، واعتكف في مختبره الخاص في الطّابق العلويّ من البيت؛ ليكمل أبحاثه السّريّة حول نظريّته التي أسماها نظريّة (الانزلاق في الفجوات النّورانيّة)، فاكتشف أنّ هناك فجوات زمنيّة كونيّة تتراكم عبر العصور بفعل قوى الجذب الكهرومغناطيسيّة الكونيّة، وتتركّز في أماكن محدّدة في العالم، وهي تغيّر مكانها من زمن إلى آخر متأثّرة بمجالات الطّاقة بسبب حركة الأرض حول نفسها وحول الشّمس في المجموعة الشّمسيّة في درب التّبّانة.

وهذه الفجوات الزّمنيّة تظهر على شكل فجوات نورانيّة إهليجيّة عملاقة ذات قدرة عالية على الانفتاح على الأزمان الماضية والحاضرة والمستقبليّة والموازية، فعبْرها يستطيع الإنسان أن يذهب إلى الماضي، أو أن ينتقل بلمح البصر إلى أماكن بعيدة جغرافيًّا في الحاضر، كما يستطيع أن يرتاد المستقبل، أو أن يدخل في عوالم أخرى موازية لحياتنا البشريّة المعيشة، أو أن يرتدّ إلى الماضي القريب أو السّحيق.

احتاج أبي إلى أن يجري أبحاثه لسنين طويلة حتى توصّل إلى هذه النّتائج النّادرة، وتتبّع بدراساته أماكن هذه الفجوات الزّمنيّة، فوجد أنّ هذه

الفجوات الزّمنيّة موجودة في النّقاط المقابلة لما يسمّيه بأبواب السّماء التي أطلق عليها اسم «المعارج»، إذ اكتشف أنّ هناك سرًّا علميًّا يخفيه علماء الغرب عن العالم، وهو أنّ السّماء ليست فضاء مفتوحًا بل هي مغلقة تمامًا، ولا يمكن النّفوذ عبرها نحو الفضاء الخارجيّ إلّا عبر أبواب محدّدة يمكن أن نسميها معارج، ومنها يمكن أن يعرج الإنسان من الأرض إلى خارج الغلاف الجويّ، وقد استطاع العلماء في العالم أن يحدّدوا بعض هذه الأبواب، ومنها شرعوا ينطلقون عبر الصّواريخ الفضائيّة والمركبات الفضائيّة في رحلاتهم الاستكشافيّة خارج نطاق الغلاف الجوّي للأرض، وهذا يفسّر لماذا يرسل الاتّحاد السّوفيتيّ رحلاته نحو الفضاء من مركز بايكانور من كازاخستان بدل أن يرسلها من أيّ مكان في بلاده حيث المساحات الجغرافيّة الشّاسعة المتاحة له؛ وتفسير ذلك أنّ الاتّحاد السّوفيتيّ قد اختار أقرب مِعْرج أو بوابة نحو السّماء متاحة وقريبة من حدوده الجغرافيّة، وكانت هذه البوابة موجودة في كازاخستان، لذلك يرسل رحلاته الفضائيّة عبر هذه البوّابة على الرّغم من التّكاليف الباهظة لهذا الإرسال من خارج أراضيه، ولكنّه مجبر على ذلك، ولا خيار أمامه غير هذا الخيار؛ لعدم وجود أيّ معارج إلى السّماء عبر أراضيه الممتدّة المساحات.

ولهذا السّبب ذاته، وبحثًا عن معرج أو بوّابة نحو السّماء فإنّ فرنسا تضطر إلى أن تغادر أراضيها الشّاسعة، وأن تحمل صواريخها ومركباتها الفضائيّة بتكاليف باهظة وحراسة مشدّدة تكلّفها ميزانيّات عملاقة من أجل أن تذهب إلى جويانا الفرنسيّة في الأرجنتين لإرسال رحلاتها الفضائيّة نحو الفضاء من ذلك المكان.

والأمـر نفسـه نجـده عنـد أمريـكا التـي تـترك مسـاحات بلدهـا التـي تمتـدّ عـبر قـارة كاملـة تقريبًـا لأجـل أن ترسـل رحلاتهـا الفضائيّـة عـبر أقـرب معـرج أو بوابـة بالقـرب منهـا، وهـي جزيـرة ميريـت في المحيـط الأطلـسيّ متحمّلـة بذلـك نفقـات ترهـق ميزانيتهـا، وتسـتنزف مدّخراتهـا.

وفي مقابـل كلّ معـرج أو بوابـة هنـاك عـلى امتدادهـا في النّصـف الآخـر مـن كوكـب الأرض فجـوة زمنيّـة نورانيّـة يمكـن الولـوج عبرهـا إلى الأزمـان جميعهـا، وقـد اسـتطاع أبي أن يحـدّد مـكان أقـرب فجـوة مـن بلادنا، وكانـت المفاجـأة أنّ الفجـوة موجـودة في إحـدى مناطـق بلادنـا في الجنـوب الشّرقـيّ تمامًـا؛ لذلـك فقـد سـارع أبي إلى شراء ذلـك المـكان الـذي يحتـوي عـلى الفجـوة النّورانيّـة، وكان موجـودًا داخـل بيـت قديـم ومهجـور منـذ العـصر العثـمانيّ، إذ كان يملكـه باشـا عـربيّ مـن ذلـك العـصر، وقـد ذهـب إلى حـرب القـرم، ولم يعـد إلى بيتـه بعـد ذلـك، وانقطعـت أخبـاره، وآل بيتـه إلى الورثـة الذيـن أهملـوا العنايـة بـه إلى أن أصابـه العطـب، وتهدّمـت بعـض أركانـه، فزهـدوا بـه، وهجـروه، ومـا كاد أبي يعـرض عليهـم فكـرة أن يشـتريه حتـى فرحـوا بعرضـه هـذا، وسـارعوا إلى بيعـه لـه خوفًـا مـن أن يتراجـع عـن رغبتـه في شرائـه.

أمّـا أبي فـكان يحلـم بـأن يصـل إلى الفجـوة النّورانيّـة الموجـودة في أرض البيـت الـذي اشـتراه ليحصـل لي عـلى السّـعادة التـي يحلـم بـأن أعيـش فيها، ولم أكـن أعلـم بعـدُ مـا عسـاها أن تكـون.

أبي وأسرار القرآن الكريم

أبي شـجاع الـورديّ العـالم الشّـهير في الفيزيـاء الكونيّـة، لم يـترك دربًـا من دروب العلـم في تخصّصـه إلّا وسـلكه، وقـد نـال تعليمـه الأسـاسيّ والأول في الـدّول العربيّـة، وتعلّـم أكثـر مـن لغـة قديمـة، مثـل الآراميّـة والنّبَطيّـة والآشـوريّة والبابليّـة والفرعونيّـة والأوغريتيّـة والفينيقيّـة والسّـومريّة لأجـل أن يقـرأ علـوم أصحابهـا بهـا، لا سـيما في حقـول الفلـك والفيزيـاء والوراثـة، ثـم أكمـل دراسـته وعلومـه وأبحاثـه في أمريـكا وفي كثـير مـن دول أوروبـا التـي اسـتطاع أن يكتشـف كثـيرًا مـن علومهـا وأسرارهـا بذكائـه ومهارتـه ونشـاطه في سـبيل تحصيـل العلـم، ولـو اكتشـفوا مقـدار مـا عنـده مـن علـم واكتشـافات ونبـوغ لمـا سـمحوا لـه بالعـودة إلى وطنـه في العـالم العـربيّ، ولصمّمـوا عـلى أن يعمـل لصالحهـم، وأن يمدّهـم باختراعاتـه الفـذّة، وإن رفـض ذلـك فسـيكون مصـيره هـو مصـير سـائر العلـماء العـرب والمسـلمين الذيـن رفضـوا أن يجنّـدوا علمهـم لخدمـة الغـرب، فـكان مصيرهـم الاغتيال والمـوت.

ولذلـك فقـد كان أبي متكتّـمًا عـلى علمـه، ورفـض بـإصرار أن يظهـر أيًّـا مـن اكتشـافاته، ودوّن أسرارهـا في كتـب سريّـة إلى حـين يجـد بعضًـا مـن طلبتـه الذيـن يراهـم أهـلاً لحمـل رايـة العلـم مـن بعـده عـبر إطْلاعهـم عـلى أسراره واكتشـافاته المدوّنـة في هـذه الكتـب.

أبي كان يعلـم أنّ أسرار العلـم جميعهـا موجـودة عـبر شـيفرات سريّـة في القـرآن الكريـم الـذي كان يحفظـه، ويتوقّـف عنـد آياتـه بالتّفكـير

والتّمحيص، وهو يعدّ هذه الشّيفرات من الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم، وهذه الشّيفرات السّريّة كانت عونًا له في اكتشافاته؛ فهو ما كان يبدأ في درب اكتشاف أو اختراع إلّا عندما يقرأ عن إرهاصاته وإمكاناته في القرآن الكريم، ولذلك لم يصغْ فرضيّة الأبواب المعارج إلّا عندما وجد ما يؤكّد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾[1]، و: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾[2].

وقد انطلق يبحث عن علاج لي ولغيري من أطفال العالم من ذوي الإعاقات عبر انطلاقه من دعوة الله الإنسانَ للتّفكّر في نفسه لاكتشاف عظمة خالقه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

كما أنّه وجد إشارات واضحة تدلّ على اختلاف الزّمن ونسبيّته من مكان إلى آخر ومن وقت إلى آخر عندما أشار الله سبحانه وتعالى في القرآن العظيم إلى أنّ الزّمن يختلف مقداره بين ما يحصيه الرّب وبين ما يشعر البشر به، ويجعلونه ميقاتًا لهم، وذلك عبر قوله تعالى:

- ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[4].

(1) الحجر: 14.
(2) النّبأ: 19.
(3) فصلت: 53.
(4) السّجدة: 5.

- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1].

- ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2].

ومن هذه الآيات الكريمة انطلق أبي في أبحاثه واكتشافاته من أجل إثبات فرضيّة (الانزلاق في الفجوات النّورانيّة) حتى استطاع أن يثبتها، وأن يحوّلها إلى نظريّة حقيقيّة ذات أدلّة وبراهين وفق حسابات رياضيّة واضحة ومحدّدة وأكيدة.

أبي يدرك أنّ القرآن الكريم هو السّر الأكبر في هذه الحياة، ولذلك كتب وصيّة لمن سيكون وريثه في درب العلم يوصيه فيها بأن ينطلق في علمه وأبحاثه وأهدافه وغاياته من القرآن الكريم؛ ففيه الحقائق كلّها بدقّة ووضوح.

هدية الأطفال المختلفين

لقد استطاع أبي أن يحدّد مكان الفجوة النّورانيّة في البيت القديم الذي اشتراه، وأعاد تقسيم حجرات الطّابق الأرضي منه عبر عمله في الهدم والبناء بيديه دون مساعدة مهندس أو بنّائين

(1) الحجّ: 47.
(2) المعارج: 4.

أو عـمّال تجهيـز؛ لأنّـه كان يخشـى أن يُفتضـح أمـره، وأن ينكشـف أمـر الفجـوة النّورانيّـة.

وقـد اسـتغرق بنـاؤه للغرفـة السّـفليّة في البيـت القديـم نحـو أربعـة أشـهر؛ وقـد جعـل الفجـوة النّورانيّـة محصـورة في غرفـة كبـيرة حصّنهـا بجـدران فولاذيّـة مكسـوّة بالطّـوب الأحمـر بعـد عزلهـا بعـازل كامـل التّغطيـة، ثـم أوصـد عليهـا ببـاب فـولاذيٍّ يُفتـح عـبر شـيفرة خاصّـة، وجعـل مـن هـذه الغرفـة مكانًـا آمنًـا يحفـظ فيـه أوراق أبحاثـه وكتبـه ومعملـه وأجهـزة اتّصالاتـه الإلكترونيّـة، لا سـيما أجهـزة مراقبتـه للمنظومـة اللاسـلكيّة في العـالم المرتبطـة بالأقـمار الصّناعيّـة في الغـلاف الجـويّ الأرضيّ.

وقـد أغلـق أبي بوابـة الفجـوة النّورانيّة بغطـاء كربونيٍّ اسـتخدم في تصنيعه تقنيّـة (النّانـو) ليكـون أقـوى خمسـين ألـف مـرّة من غطـاء في سـمكه، وهو في سـمك شـعرة واحـدة وفي وزنهـا لا غـير. وجعـل التّحكـم بفتـح هـذه البوّابة وبرمجـة الانتقـال عبرهـا يكـون بإدخـال الشّـيفرة السّريّـة إلى جهـاز التّحكـم المقـترن بالبوّابـة عـبر منظومـة كهروذريّـة تُبرمـج بنابـض ذريٍّ في لـوح تحكّـم يُغـذى بالمعلومـات والبرمجيّـات عـبر ذاكـرات (نانونيّـة) قـادرة عـلى اختـزال ملايـين الكتـب والمعلومـات في حيِّـز ملـم مربـع واحـد فقـط لا غير.

أمّـا باقـي مبنـى البيـت القديـم، فقـد قـرّر أبي أن يجعلـه هديـة لي وللأطفـال المختلفـين. لقـد عرفـتُ قـراره هـذا قبـل أن يخـبرني بـه عندمـا كان يـدور في خَلَـده، وعلمـتُ كـم كابـد مـن معانـاة وتعـب

وسـفر وبحـث لأجـل مسـاعدتي، وأدركـتُ أنّـه يحمـل فرحًـا غامـرًا لي وللأطفـال المختلفـين جميعهـم، ولأوّل مـرّة شـعرتُ بـأنّ القـادم هـو الفـرح والخـير.

لقـد كـدتُ أخـبرُ أبي عـن موهبتـي الاسـتثنائيّة التـي تجعلنـي قـادرة عـلى قـراءة دواخـل البـشر، لكنّنـي مـا زلـتُ أجـدُ صعوبـة في التّكلّـم والتّعبـير بسـبب إعاقتـي، فصعـب عـليّ أن أخـبره بأمـر موهبتـي الخارقـة.

لقـد انتقلنـا أنـا وعنـزتي شـقراء وجـدّتي مليحـة للعيـش في الطّابـق العلـويّ مـن البيـت القديـم الـذي اشـتراه أبي في المدينـة البعيـدة عـن مدينتـا حيـث كنّـا نسـكن في بيتنـا القديـم، بعـد أن شرع أبي في تحويـل البيـت القديـم الـذي اشـتراه مـن الورثـة إلى مسـكن لأسرتنـا في طابقـه العلـويّ، وإلى مدرسـة لتعليـم الأطفـال المعاقـين في الطّابـق الأوّل والأرضي منـه.

وقـد اسـتطاع أن ينجـز ذلـك في فـترة زمانيّـة قياسـيّة، وتحـوّل البيـت القديـم مـن بنـاء قديـم مهجـور متهالـك إلى مدرسـة لتعليـم الأطفـال المختلفـين، وأسـمى هـذه المدرسـة «بيـت ديمـة»؛ لأنّـه قـرّر أن يجعـل منهـا بيتًـا حقيقيًّـا يضـمّ الأطفـال المختلفـين جميعهـم.

وسرعـان مـا أصلـح أبي البيـت ورمّمـه وأثّثـه، وجهّـز الطّابـق الأوّل والأرضيّ منـه ليكـون صفوفًـا للتّدريـس وقاعـات وباحـات للنّشـاطات خـلا الغرفـة السّريّـة في الطّابـق الأرضي التـي ظلّـت مغلقـة الأبـواب والنّوافـذ، لا يسـتطيع أيّ بـشر أن يقـترب منهـا.

طلب أبي العون من النّاس في المدينة كي يدعموه في إنشاء مدرسة بيت ديمة، لكنّهم رفضوا مساعدته أو دعمه، وسخروا منه لأنّه يريد أن يبدّد وقته وماله وجهده لأجل فتح مدرسة للأطفال الذين يعانون من الإعاقات، ووصفوه بالمجنون، ونصحوه بأن يرجع إلى بيته الأوّل في مدينته حيث أبحاثه وعلمه وطلبته وعمله الأكاديميّ؛ فلا خير، في رأيهم، في تعليم أطفال مختلفين عاجزين عن الكثير من الإنجازات والتّفاعل الإيجابيّ شأن الأطفال الذين لا يعانون من أيّ إعاقات.

لكن أبي ضرب صفحًا عن نصائحهم الشّريرة، وصمّم على أن يهدي بيت ديمة لي وللأطفال المختلفين؛ فقام بدفع تكاليف التّرميم والتّجهيز من أمواله الخاصّة، حتى إنّه أنفق مدّخراته كاملة على ذلك، واضطرّ إلى بيع سيارته الخاصّة ومنزله الخاصّ كي يغطّي باقي النّفقات، واقترض الكثير من المال من جدتي مليحة ومن بعض أصدقائه المقرّبين.

لم يحظَ أبي بأيّ عون رسميّ لتنفيذ مشروع بيت ديمة، بل إنّ الجهات الرّسميّة قد رفضتْ أن تعترف بمدرسته، ورفضتْ أن تعطيه تصريحًا رسميًّا لفتح المدرسة، ففتحها على مسؤوليته الخاصّة دون أيّ تصاريح رسميّة. كما رفضت الجهات الرّسميّة أن تمدّه بأيّ كتب أو مواد أو مراجع، ولم تمدّه بأيّ عناوين أو إحصاءات أو معلومات عن الأطفال المختلفين في المدينة؛ ولذلك فقد قام أبي

بتجهيز المدرسة عبر جهده الخاصّ، وأمضى أشهرًا يبحث عن الأطفال المختلفين الذين وجدهم عبر البحث عنهم في الفجوة النّورانيّة وبذل جهودًا عظيمة كي يقنع ذويهم بإخراجهم من سجونهم في البيوت، والاعتراف بهم، وعدم الخجل منهم، وإرسالهم إلى مدرسة بيت ديمة ليتعلّموا فيها على ضمانته الشّخصيّة وتحت رعايته المباشرة لهم، فوافق ذووهم على ذلك بصعوبة بالغة بشرط أن يتكفّل أبي بكافّة نفقات أبنائهم الذين سيدرسون في مدرسته بما في ذلك مصاريف المواصلات والقرطاسيّة وشراء الكتب ووجبات الطّعام وشراء الملابس المدرسيّة والأدوات الطّبيّة الخاصّة والأدوية العلاجيّة، وقد وافق أبي على ذلك كلّه في سبيل أن يهبني مدرسة وعلمًا وزملاء وأجواء دراسيّة مثاليّة.

وأخيرًا تمّ افتتاح مدرسة بيت ديمة بعد تجهيز صفوفها وباحاتها وساحاتها ومرافقها، وأصبحتُ طالبة في مدرسة جميلة أنيقة، وغدا لي زملاء في الصّف من الأطفال المختلفين.

أمّا الغرفة السّريّة في الطّابق الأرضيّ، فقد كانت موصدة الباب على أخطر سرّ في كوكب الأرض، في حين كان أبي يعيش سعادة لا حدود لها، وهو مَنْ قرّر أن يجعل من فجوته النّورانيّة بابًا للرّحلات الخاصّة والسّريّة لأطفال مدرسة بيت ديمة كي يعلّمهم عبر هذه الرّحلات معنى الانتصار على الضّعف والإعاقة ورفض المجتمع لهم، والاحتذاء بالقدوات في هذا الشّأن.

في عشيّة يوم افتتاح مدرسة بيت ديمة وبعد انتهاء الفعاليّات الجميلة؛ إذ قُدمت السّكاكر والشّطائر والألعاب للأطفال المختلفين، عاد أبي إلى البيت سعيدًا فخورًا بنفسه، ثم قضى ساعتين في غرفته السّريّة حيث الفجوة النّورانيّة لينجز أمرًا ما لا أعرف ما يكون.

أنا وعنزتي شقراء كنّا في استقبال أبي عند عودته، ركضنا نحوه بفرح، فحضنني بدفء ومحبّة، فقرأتُ في أعماقه فرحه العميق بسرّه الخطير حول الفجوة النّورانيّة، فقبّلته بفرح وتفاؤل، وقلتُ له بصوت متلعثم بعد أيّام من التّدرّب في المدرسة على لفظ بعض الكلمات: أبي، أنا أحبّكَ، أنا أعرف سرّ الفجوة النّورانيّة.

عندها بكى أبي فرحًا بكلماتي، وضمّني إلى صدره من جديد، وأخذ يحلم بالقادم الجميل، وعنزتي تقول بفخر: حبيبتي ديمة سعيدة أخيرًا. شكرًا لله على هذه النّعمة.

فرح ومايكل والحبّ الكبير

عمتي نجيبة تعيش في إحدى المدن الإنجليزيّة منذ زمن طويل بعد أن هاجرتْ مع زوجها إلى هناك. هي إنسانة خيّرة تؤمن بالحبّ والعطاء، وتحبّ البشر دون استثناء. ابنتها الطّبيبة فرح قد ورثت عنها قلبها الكبير المحبّ الذي يقدّم العون للنّاس دون توقّف؛ ولذلك فقد عملتْ طبيبة لجراحة القلب إلى أنْ أصبحتْ طبيبة شهيرة في هذا التّخصّص في فترة قصيرة جدًّا.

قابلتْ فرحُ مايكل صدفة، فجمع الحبّ بين قلبيهما من اللّحظة الأولى من اللّقاء، فكلاهما كبير القلب. أراد مايكل أن يتزوّج فرحَ رغم اختلاف الدّين والعرق والأصول واللّغة والثّقافة، فوافقتْ فرح على هذا الزّواج.

عمتي نجيبة وزوجها الطّيب باركا هذا الزّواج، وأرسلا بطاقة دعوة إلى أبي كي يحضر حفل الزّفاف الذي سيكون في حديقة جميلة من حدائق المدينة؛ لأنّ فرحَ تحبّ الزّهور والفراشات والهواء الطّلق.

أبي قرّر أن يسافر إلى المدينة الإنجليزيّة لحضور حفل الزّواج، وقرّر كذلك أن يصطحبني ويصطحب الجدّة مليحة معه، ولكنّ جدّتي مليحة تتعب من السّفر الطّويل عبر الطّائرات، وتُصاب بالإجهاد في المطارات، ولا تحتمل اضطرابات الضّغط الجويّ والمطبّات الهوائيّة في أثناء تحليق الطّائرة في السّماء، وأنا لا أستطيع أن أترك عنزتي شقراء بمفردها في البيت؛ لأنّ أبي يرفض أن يأخذها في رحلة جويّة عبر أيّ شركة طيران كانتْ؛ فيفتضح أمر اختراعه الجديد، وهو يريد أن يتكتّم عليه إلى أن يأتي الوقت المناسب لإعلانه؛ لذلك فقد قرّر أبي أن نسافر إلى إنجلترا عبر الفجوة النّورانيّة الموجودة في الغرفة السّريّة من بيت ديمة؛ فهي أسهل طريقة متاحة للسّفر والتّنقّل، وكذلك يمكن أن نصطحب عنزتي شقراء عبرها.

في اللّحظة المقرّرة للسّفر دخل أبي برفقتي ورفقة الجدّة مليحة والعنزة

شقراء إلى غرفته السّريّة في بيت ديمة في الطّابق الأرضيّ من المبنى بعد أن أدخل الرّقم السّريّ في حافظة إغلاق الباب الفولاذيّ، ففُتح الباب بشكل إلكترونيّ وإطاره المعدنيّ يتوهّج بضوء أحمر قانٍ، ثم ضغط أبي على لوحة الشّاشة في جهاز التّحكم المقترن بالغطاء الكربونيّ للفجوة النّورانيّة عبر منظومة كهروذريّة، ثم زوّدها بتفاصيل الزّمن الذي نبغي الانزلاق إليه كما حدّد إحداثيّات خطوط العرض والطّول للوجهة التي نقصدها، ثم أثبتَ في ذاكرة التّحكّم عددنا وعمر كلّ منّا ووزنه كي يتلاءم الحامل الذّري مع حاجاتنا من الأكسجين في انزلاقنا الزّمني في الفجوة النّورانيّة، ويوفّق بين الضّغط الدّاخليّ للفجوة وقدرة أجسامنا على احتماله.

وفجأة انفتحت الفجوة النّورانيّة بريح باردة لافحة، وسمعنا صوت موسيقى موغلة في البعد تختلط بأصوات بشريّة وحيوانيّة وآليّة في فوضى غير مفهومة، وفاحتْ منها رائحة أرضيّة غريبة، وانبثق منها نور بأطياف ملوَّنة تحمل طاقة جذب لأجسادنا نحوها، فانزلقنا جميعًا في الفجوة النّورانيّة، ومررنا في لولب ضوئيٍّ يعطِّل الرّؤية والسّمع والحركة والإحساس بالزّمن، وشعرنا بأنّنا نسقط في بئر عميقة، وأن أجسادنا تستسلم لقوة عظيمة تجعلها تطير بخفّة في عدمٍ أَسود مجهول، واجتاحنا ضعف غريب، وشعرنا بعجز في أطرافنا، وفقدنا قدراتنا على الحركة، وبدأنا ننزلق نحو الأسفل في هواء بارد نقيٍّ يحملنا بكلّ سهولة، وبدأنا نصرخ دون توقّف وأحدنا يبتعد عن الآخر طائرًا في هذا الهواء المنزلق

نحو الأسفل، وأخذنا نتفرّق في فضاء لولبيٍّ ضيّق ينجذب نحو الأسفل، وبلمح البصر وجدنا أنفسنا في بيت العمّة نجيبة التي طارتْ فرحًا بوصولنا إلى بيتها بعد أن انشقّت فجوة نورانيّة في جدار غرفة معيشتها، وشرع أحدنا يخرج منها تلو الآخر، وعانقت أمَّها الجدّة مليحة عناقًا طويلًا؛ إذ لم ترها منذ عدّة سنوات، وقدّمت لنا حلوى المكسّرات اللّذيذة.

كانتْ هذه المرّة الأولى التي أقابل فيها ابنة عمّتي الطّبيبة فرح وعريسها مايكل، كانت تطوّقهما هالة نورانيّة جميلة برّاقة، يسميها أبي الحبّ. أنا أيضًا أريد أن أحظى بهالة مثل هذه الهالة عندما أكبر، وأريد أن أحبّ رجلًا طيّبًا، وأن أتزوّجه، وأن أنجب منه أطفالًا صغارًا شديدي الجمال.

حضرنا حفل العرس الذي يعجّ بالزّينة والزّهور والموسيقى والمدعوين الذين يرتدون ملابس جميلة زاهية. هذه هي المرّة الأولى التي أحضر فيها حفل زواج. لقد تلقّى العروسان كثيرًا من الهدايا في هذا الحفل الجميل، هما محظوظان لأنّهما تلقّيا هذا الكمّ الكبير من الهدايا التي يمكن أن تسعدهما كثيرًا، وأن تساعدهما في بناء مستقبلهما.

فرح ومايكل أخبرا أبي أنّهما سوف يقدّمان هدايا زواجهما كاملة لأجل دعم بيت ديمة؛ فحبّهما الكبير يجعلهما يفرحان بتقديم السّعادة والعون للبشر جميعًا، وهما قد اقتنعا بأهمّية دورهما في دعم

الأطفال المختلفين بعد أن عرّفهما أبي بالمشروع، وقد قامتْ فرح بتصميم موقع إلكترونيٍّ خاصٍّ بـ«بيت ديمة» لتُعرِّف النّاس الطّيبين في كلّ مكان بهذا المشروع كي يقدّموا الدّعم له، وكي يتعلّموا منه أن يقدّموا العون للبشر وفق ما يستطيعون، وتعهّدتْ -على الرّغم من انشغالها بالعمل في المستشفى- بأن تُشْرِف بشكل دائم على إدارة هذا الموقع الإلكترونيّ، كما تعهّد مايكل بأن يُعرِّف بمدرسة بيت ديمة وبأهدافها في مختلف الأوساط الاجتماعيّة والتّطوعيّة في مدينته وفي المدن المجاورة لها.

فرح ومايكل يعيشان الآن معًا في بيت صغير كلّه حبٌّ ودفء وحنان، ويحلمان بإنجاب طفل صغير يرث حبّهما الكبير. وقد ودّعانا قبل أن ننزلق من جديد في الفجوة النّورانيّة، لنعود إلى بيت ديمة، ونحن نحمل الكثير من النّقود والهدايا التي قدّمها الزّوجان العاشقان لأجل الإنفاق على مشاريع التّعليم في مدرسة بيت ديمة.

لقد اكتشفتُ أنّ الذين يملكون حبًّا كبيرًا يستطيعون أن يقدّموا الكثير من العون للبشر. أنا أيضًا أريد أن أجد الحبّ الكبير في يوم من الأيّام، فحتى الأطفال الذين يختلفون عن غيرهم من الأطفال لهم الحقّ في أن يحظوا بالحبّ والفرح والسّعادة.

البحث عن كتاب (الحكايات والعِبَر)

بعد شهرين من حفل زواج فرح ومايكل جاءتْ عمّتي نجيبة لزيارتنا في بيتنا في الطّابق العلويّ من بيت ديمة. عمتي نجيبة روائيّة مشهورة، وهي تكتب الرّواية بأكثر من لغة، وتحاول دائمًا أن تبحث عن موضوع جديد لرواياتها في الأماكن التي تزورها وعند الأشخاص الذين تقابلهم.

عندما قابلتْ أمّها مليحة ذكّرتها بكتاب (الحكايات والعِبَر) الذي ورثته عن سلالة جدّاتها، وهو كتاب عملاق عمره أكثر من ألف عام، وفيه نبع لا ينضُب من الحكايات التي تحمل العِبَر والدّروس والفوائد لكلّ من يقرأ فيه.

كانت الجدّة مليحة تقرأ لأطفالها من هذا الكتاب عندما كانوا صغارًا، ثم فقدته فجأة، فبحثتْ عنه طويلاً دون أن تجده.

عمتي نجيبة تعلّمت أن تحبّ الحكايات، وأن تقرأ الكثير منها في هذا الكتاب الذي كانت الجدّة مليحة تفخر به، وكانتْ تأمل أن تجده عند أمّها كي تستعين به في كتابة روايتها المقبلة، وقد أسفتْ بالغ الأسف عندما علمتْ أنّ الكتاب قد ضاع من الجدّة مليحة منذ سنين، ولم تستطع أن تجده بعد بحث طويل عنه.

عنزتي شقراء كانت ترغب في أن تقرأ بعضًا من حكايات هذا الكتاب؛ ولذلك فقد اقترحتْ على جدّتي مليحة وعمتي نجيبة أن تبحثا عن هذا الكتاب الضّائع في الزّمن الماضي.

استحسن أبي الفكرة، وقفزنا جميعًا في الفجوة النورانيّة التي قادتنا إلى الماضي حيث بحثنا طويلًا عن الكتاب الضّائع في بيت الجدّة مليحة، فوجدناه قابعًا في صندوق الذّكريات القديم الذي باعته الجدّة لأحد تجّار الأثاث المستعمل دون أن تعرف أنّ كتابها المفضّل موجود فيه.

تتبّعنا الكتاب، فوجدنا التّاجر يبيع الصّندوق لامرأة في حيٍّ شعبيٍّ، ووجدنا المرأة تجد الكتاب، وتتصفّحه دون اهتمام به، ثم تلقي به في الشّارع غير آبهة به، ثم يأتي طفل صغير يأخذه، ويقلّبه، وعندما لا يجد فيه ما يثير اهتمامه، يقرّر أن يلقي به في محرقة النّفايات، عندها تدخّلت عنزتي شقراء، وقايضت الكتاب بالكثير من السّكاكر التي أفرحت الطّفل الصّغير الذي تخلّى عن الكتاب بكلّ طيب خاطر.

عدنا جميعًا عبر الفجوة النّورانيّة إلى الحاضر نحمل كتاب (الحكايات والعِبَر). هو كتاب عملاق له غلاف جلديٌّ بنيّ اللّون عتيق جدًّا، وتنبعث منه رائحة القِرفة، الجدّة مليحة فرحتْ فرحًا عظيماً بعودة كتابها إليها، وحضنته كأنّها تحضن طفلها الضّائع.

العمّة نجيبة شرعتْ تقرأ في الكتاب، ولم تفارقه لأيّام طويلة حتى فرغتْ من قراءة حكاياته الممتعة، ثم قرّرتْ أن تكتب رواية للأطفال عن الحياة والاختلاف والتّحدّي، واختارتْ أن يكون أبطال هذه الرّواية من فئة الأطفال المختلفين، وقرّرتْ أن يكون اسم الرّواية هو

«بيت ديمة»، كما قرّرتْ أن تنشر هذه الرّواية بأكثر من لغة كي يعرف الأطفال في كلّ مكان حكاية الأطفال المختلفين الطّيبين الذين يعيشون في بيت ديمة، ويحبّون الحياة، وينتصرون على الحزن والضّعف.

واتّفقتْ معي على أن أخبرها بتفاصيل الحياة والأصدقاء في بيت ديمة على أن تكتب اسمي معها على غلاف الرّواية بوصفي مؤلّفة مشاركة في هذه الرّواية، وقد وافقتُ على هذه الفكرة بكلّ فرح وسعادة؛ فهذه هي المرّة الأولى التي سأشارك فيها في كتابة رواية ما، وقد أصبحُ فيما بعد روائيّة مشهورة مثل عمّتي نجيبة، وإن كنتُ أُفَضِّل أن أصبح أمًّا حنونًا.

أمّا الجدّة مليحة فقد عادتْ تمارس موهبتها القديمة، وهي أن تقرأ الحكايات الموجودة في كتاب (الحكايات والعِبَر)، ثم تقصّها على أطفال بيت ديمة الذين تحبّهم، بعد أن انقطعتْ عن ممارسة هذه الهواية لسنين طويلة بسبب ضياع كتاب حكاياتها، وذاكرتها لم تعد تتذكّر إلّا القليل من الحكايات الموجودة فيه.

أنا أحرصُ على أن أحفظ كلّ أمر يحدث في بيت ديمة كي توثّقه عمّتي نجيبة في روايتها في زياراتها الأسبوعيّة لبيتنا عبر الفجوات النّورانيّة، بعد أن بدأتُ أروي لها حكايات بيت ديمة بالتّفصيل الدّقيق، فتسجّل كلّ كلمة أقولها لها باهتمام بالغ، وتَعِدُ بكتابة رواية خالدة عن الأطفال المختلفين.

أمّا الجدّة مليحة فقد اتّفقت مع أبي على أن تقرأ حكاياتها على الأطفال المختلفين في بيت ديمة مرّة كلّ أسبوع ضمن درس اسمه

(الحكايـة والعِـبَرَة). وفي كلّ مـرّة تقـرأ علينـا حكايـة تعلّمنـا كثـيرًا مـن الفوائـد والـدّروس والحكـم.

جميعنـا نحـبّ هـذه الحكايـات، ونتخيّـل أنفسـنا أبطالهـا، ونسـافر عبرهـا إلى عـوالم بعيـدة جميلـة.

المعلِّمة نعيمة والأطفال المختلفون

كان مـن الصّعـب عـلى أبي أن يجـد معلّمـة تقبـل بتدريـس طلبـة مـن ذوي الإعاقـات في مدينـة قاسـية تـرى الإعاقـة خطيئـة، ولكـنّ أبي ظـلّ يبحـث عـن المعلّمـة المطلوبـة عـبر الفجـوة النّورانيّـة في غرفتـه السّريّـة.

لقـد كان يبحـث عـن امـرأة تملـك قلبًـا كبـيرًا حنونًـا، وذات مواهـب في التّعليـم والتّدريـس والابتـكار في الأسـاليب التّربويّـة والتّعليميّـة، وتؤمـن بحـقّ الأطفـال المختلفـين في الحيـاة. البحـث عنهـا اسـتغرق كثـيرًا مـن وقتـه إلى أن وجدهـا، وأتـى بهـا مـن بلـد بعيـد.

اسـمها المعلّمـة نعيمـة، وكانـت قـد عانـت كثـيرًا مـن الظّلـم والفقـر؛ لأنّهـا كانـت تعيـش في مدينـة يحكمهـا أمـير ظـالم، وكانـتْ قـد فقـدتْ زوجهـا في سـجون ذلـك الأمـير، كـما لم تجـد فرصـة للعمـل في تلـك المدينـة؛ لأنّ زوجهـا مـن المعارضـين للأمـير الظّـالم، ولذلـك فقـد ضاقـت الدّنيـا عليهـا بـما رحبـتْ، ولم تعـدْ تسـتطيع أن تجـد المـال لتنفـق عـلى بيتهـا وأبنائهـا الصّغـار الثّلاثـة وحماتهـا العجـوز التـي تعيـش في بيتهـا.

سـافر أبي إلى المعلّمـة نعيمـة عـبر الفجـوات النّورانيّـة، وحدّثهـا عـن مـشروع تعليـم الأطفـال المختلفـين في بيـت ديمـة، وعـرض عليهـا العمـل معـه في هـذا المـشروع مقابـل راتـب مجـزٍ وتأمـين منـزل لهـا ولصغارهـا ولحماتهـا، ووعدهـا بحمايتهـم جميعًـا مـن أيّ شرٍّ أو خطـر أو فقـر، فوافقـت المعلّمـة نعيمـة عـلى هـذا العـرض مـسرورة بـه، متحمّسـة لـه، فجـاء أبي بهـا إلى مدينتنـا عـبر الفجـوة النّورانيّـة بصحبـة أبنائهـا وحماتهـا وكتبهـا.

كنـتُ أوّل مـن قابـل المعلّمـة نعيمـة، وعندمـا نظـرتُ في وجههـا قـرأتُ أسرارهـا جميعًـا، وعرفـتُ أنّ سرّ حبّهـا لـذوي الإعاقـات يعـود إلى أنّ أمّهـا كانـت تعـاني مـن إعاقـة عقليّـة طفيفـة، وقـد زوَّجهـا أهلهـا لرجـل عجـوز كـي يتخلّصـوا منهـا، ولم يتوقّعـوا أن تنجـب ابنتهـم طفلـة مـن ذلـك العجـوز الـذي سرعـان مـا مـات، وتـرك المعلّمـة نعيمـة تلعـب دور الابنـة والأمّ في آنٍ، فكانـت ترعـى أمّهـا، وتفسِّر الأمـور لهـا، وتحميهـا مـن أيّ شرٍّ وإهانـة، وتقـوم عـلى خدمتهـا، ولكنّهـا كانـتْ تحـزن حزنًـا عظيـماً عندمـا تعـاني أمّهـا مـن ازدراء النّـاس لهـا، ويسـمّونها مجنونـة أو متخلّفـة أو حمقـاء؛ ولذلـك عاهـدتْ نفسـها عـلى أن تخـدم أمّهـا حتـى آخـر لحظـة مـن حياتهـا، وهـذا مـا كان.

لقـد أحببـتُ المعلّمـة نعيمـة حبًّـا جمًّـا، وهـي أحبّتنـي كذلـك، وأحبّـتْ أطفـال بيـت ديمـة حبًّـا كبـيرًا مخلصًـا، وكانـت تعلّمنـا بـكلّ صـبر واحتـمال، وتتعامـل معنـا باحـترام وتقديـر، ولا تجـرح مشـاعرنا عندمـا تواجـه صعوبـات في تعليمنـا، حتـى هنـد التـي تعـاني مـن عـدّة إعاقـات، وتملـك

مزاجًا سيئًا في الأوقات كلّها كانت تتعامل معها بمحبّة وصبر، وتُقدِّم العون لها.

كثيرًا ما كانتْ تذهب مع أبي في رحلات طويلة عبر الفجوة النّورانيّة لتبحث عن الأطفال المختلفين في مدينتنا، وقد استطاعتْ وأبي أن تحصيهم جميعًا، وأن تقنع أهاليهم بإرسالهم إلى المدرسة، كما استطاعتْ أن تجد أربع معلّمات طيّبات متخصّصات في تعليم الأطفال المختلفين، وبدأت تنفّذ معهنّ خططًا ناجعة لتدريسنا بانتظام ومثابرة.

فبدأ الأطفال الحزانى أصحاب الوجوه الشّاحبة يبتسمون، ويحفظون أسماءهم بفرح وابتهاج.

الفصل الثَّاني

القادمة من الجنَّة

"الوالدان عندما يؤمنان بابنهما المعاق يجبران العالم على أنْ يعترف به".

أمِّي عفاف

أمِّي عفاف

كثيرًا ما أراقبُ المعلّمة نعيمة وهي تداعب أبناءها الصّغار الثّلاثة، وأتلصّص -في معظم الأوقات- على الأطفال الذين يأتون إلى بيت ديمة بمرافقة أمّهاتهم، وأتساءل دون توقُّف كم من السّعادة قد حُرمت منها بسبب موت أمّي عفاف؟!

ليس عندي كثير من الذّكريات عن أمّي الرّاحلة عن الحياة، ولكنّني أتذكّر وجهها الحنون الأسمر العذب الابتسامة، كما أتذكّر ملمس جلدها النّاعم المعطّر وهي تداعب وجنتي كي أنام عندما كنتُ طفلة صغيرة، وأتذكّر خوفها الشّديد عليّ عندما كنتُ مريضة في المستشفى بعد أن أُجريت لي عمليّة في القلب لإغلاق الثّقب الذي كان فيه منذ ولادتي.

أنا لا أملك أيّ صورة لأمّي؛ ولذلك فأنا مشتاقة لرؤية وجهها الطّاهر، وأرغب في أن أعرف كثيرًا من التّفاصيل عنها وعن حياتها. سألتُ الجدّة مليحة عن أمّي، وعن تفاصيل موتها، فأجابتني بأنّ أمّي

كانت امرأة طيّبة وحنونة، وماتتْ بسبب مرض عضال مفاجئ قد أصابها على حين غِرّة، ثم صمتتْ دون أن تُضيف أيّ كلمة أخرى.

لكنّني استثمرتُ موهبتي في قراءة دواخل النّاس، وقرأتُ ما هو موجود في أعماق جدّتي مليحة، وعرفتُ الكثير عن أمّي حبيبتي، كما عرفتُ السّر الذي تخفيه جدّتي مليحة عنّي فيما يتعلّق بأمّي عفاف.

أمّي عفاف كانت طبيبة نسائيّة مشهورة، وقد تزوّجتْ بأبي في شبابها، وعرفتْ وهي تحملني جنينًا في أحشائها أنّني طفلة تعاني من مرض (متلازمة داون)، بعض الأطبّاء نصحوها بأن تتخلّص مني بإجهاض حملها بي، ولكنّها صمَّمَتْ على أن تتمسّك بي، وأن تهبني الحياة حتى لو كنتُ طفلة تعاني من المرض الملازم لها، وعاهدتْ نفسها على أن ترعاني، وقد ساندها أبي في قرارها هذا، ورفضا أن يكون مرضي سببًا لحرماني من حقّي في الحياة.

أمّي عفاف فرحتْ بي عند ولادتي فرحًا كبيرًا، واختارتْ لي اسم ديمة، واستقالتْ من عملها في المستشفى كي تهتمّ بي، لقد ضحّت بمستقبلها المهنيّ كاملًا لأجل أن ترعاني، وكانتْ إلى جانبي طوال فترة مرضي بثقب القلب، وظلّتْ تحلم بأن تقدّم العون والدّعم لي طوال حياتها، ولكن حياتها انتهتْ سريعًا بسبب تضحيتها بنفسها كي تنقذني؛ لقد كانت تسير على الرّصيف تمسك بكفّ يدي اليمنى عندما انحرف سائق متهوّر بسيّارته نحونا، وصعد بسرعة نحو الرّصيف باتّجاهنا مباشرة، عندها ألقتْ أمّي بجسدها على السّيارة، ودفعتني بعيدًا عن

إطاراتها المداهمة لنا. لقد حمتني أمّي من الموت بجسدها الصّغير الذي داسته عجلات السّيارة، فماتتْ كي تنقذني منه.

لا أتذكّر هذه القصّة الأليمة أبدًا؛ فقد حدثتْ وأنا صغيرة في العمر، لا أتجاوز السّنة الثّالثة من عمري، لقد أخفى الجميع هذه القصة عنّي كي لا أحزن إن عرفتُ بها، لكنّني الآن قد عرفتُ الحقيقة، وأدركتُ كم كانت أمّي عفاف سيدة عظيمة. ليتها الآن على قيد الحياة إذن لوهبتني كثيرًا من السّعادة والمحبّة والدّعم والإيمان بي.

أبي الحنون أخفى صور أمّي كي لا أتذكّر هذه الحادثة الأليمة، وجدّتي مليحة كتمتْ هذه القصّة في صدرها، ولم تبحْ بها لي.

الآن عندي رغبة جارفة في أن أقابل أمّي، وأن أرتمي في حضنها، وأن أخبرها بمدى حبّي لها؛ فهي مَنْ ضحّتْ بحياتها كي تنقذني من الموت.

الجنَّة

إنّه عيد ميلادي الحادي عشر، والدي قرّر أن نحتفل به مع الأصدقاء والمعلّمات في بيت ديمة، هذه المرّة الأولى التي سيكون حفل عيد ميلادي حفلاً كبيرًا يجمع النّاس الذين أحبّهم جميعًا، جدّتي مليحة سوف تحضر هذا الحفل، وعمّتي نجيبة وزوجها وابنتها الطّبيبة فرح وزوجها مايكل سيحضرونه كذلك.

والدي أحضر كعكة كبيرة احتفالاً بعيد ميلادي، وأحضر لي كذلك

ثوبًا ورديًّا جميلاً وطوق شعر ذهبيًّا عليه كثير من الفراشات اللّامعة، أبي الحبيب والأصدقاء والأقارب الذين أحبّهم هم حولي الآن، ولكنّني أريد أن تكون أمّي إلى جانبي أيضًا؛ فأنا أفتقدها كثيرًا، وأشعر بعجز عن الحياة دون وجودها إلى جانبي.

عندما أطفأتُ الشّموع الإحدى عشرة التي أشعلها أبي في وسط الكعكة الكبيرة، وصفّق الجميع لي فرحًا بإطفاء الشّموع، وطلب أبي منّي أن أتمنّى، كانت أمنيتي الوحيدة أن أزور العالم الآخر كي ألتقي أمّي عفاف، وأردّها معي لنعيش معًا في بيتنا دون أن تفارقنا من جديد. أمنية عيد ميلادي كانت أمنيتي الدّائمة، وهي أن أكون إلى جانب أمّي عفاف.

أبي قرّر أن يحقّق لي أمنية عيد ميلادي، وأن يأخذني في زيارة إلى الحياة الآخرة، وقد أمضى أيّامًا طويلة وهو يقوم بحسابات زمنيّة دقيقة لأجل القفز في الفجوة النّورانيّة التي ستقودنا إلى الحياة الآخرة؛ فهذه الرّحلة فيها كثير من المخاطر كما قال أبي، ولذلك قرّر أن يقوم بدراسات زمنيّة دقيقة قبل القيام بها، وقد وافق بصعوبة على أن ترافقنا عمتي نجيبة في هذه الرّحلة التي رغبتْ بشدّة في أن تزور الحياة الآخرة كي تستفيد من هذه الزّيارة في كتابة أحداث روايتها عن بيت ديمة، في حين رفض أبي أن يرافقنا أيٌّ من أطفال البيت أو معلماته حماية لهم من أيّ خطر متوقّع في هذه الرّحلة النّادرة غير مضمونة العواقب.

بعد صلاة الفجر ودّعنا الجدّة مليحة التي دعتْ لنا بالتّوفيق

والسّلامة، ثم دخل أبي برفقتي ورفقة عمتي نجيبة والعنزة شقراء إلى غرفته السّريّة في بيت ديمة، وانزلقنا عبر الفجوة النّورانيّة، لنجد أنفسنا في أرض خضراء جميلة تعجّ بالزّهور والأشجار والينابيع والفراشات والحيوانات الغريبة المسالمة التي تأكل من العشب، وتركض في الأفق، والجوّ عليل يعبق بالأريج المنعش، والنّاس يلبسون ملابس نظيفة ناصعة البياض، ويستلقون على آرائك من حرير وذهب وجواهر كريمة، وأنهار من العسل واللّبن تسير بتعرّج بين الأرائك، وصوت موسيقى عذبة يداعب الآذان، ويُسعد الأرواح، والسّلام يعمّ المكان، فتفرح القلوب، وتبتسم الوجوه.

الدّهشة من جمال المكان وسحره ألجمتنا، فغرقنا في صمت فضوليٍّ، ونحن نراقب كلّ ما حولنا بمتعة وتلذُّذ وتعجُّب ودهشة.

– عنزتي شقراء بفضول: أين نحن الآن؟

– صوت نسائيٍّ ناعم حنون فَرِح: أنت في الجنّة، أنتم جميعًا في أرض الأخيار البررة.

التفتنا إلى مصدر الصّوت الذي جاء من خلفنا، فوجدنا أمامنا امرأة سمراء بملامح رقيقة وابتسامة حنون تسير نحونا، وهي تلبس ثوبًا أبيضَ فضفاضًا تجرّ أذياله وهي تسير على مهل، وشعرها الأسود النّاعم ينسدل على كتفيها: أهلاً بكِ يا ديمة، لقد أصبحتِ صبيّة جميلة، لقد كبرتِ. تبارك الخالق فيما خلق.

– أبي بسعادة وحماس ودهشة وفرح: عفاف؟ أهذه أنتِ؟

– نجيبة: أهلًا بكِ يا عفاف.

– ديمة: أمّي، أهذه أنتِ؟ لا أصدّق عيني. لقد اشتقتُ إليكِ. لماذا تركتني وحيدة، وغادرتِ الحياة؟

– أمي: تعالي إلى حضني يا غاليتي الصّغيرة.

ركضتُ سريعًا نحو أمّي، وارتميتُ في حضنها الدّافئ الحنون، كان حضنها أجمل مكان في الدّنيا، وشعرتُ براحة وأمن وسعادة غامرة، وشممتُ رائحتها التي تشبه رائحة الورد البرّيّ الذي تعبق أنسام الصّباح به. أردتُ أن أنام في حضن أمي، وأن أسكن فيه إلى الأبد.

– ديمة: أمّي الغالية، أحبّكِ كثيرًا، أرجوكِ لا تتركيني أبدًا بعد الآن.

– أمّي: إنّني أعيش في سعادة وهناء في هذا المكان. ومن مكاني هنا أراقبكِ دومًا دون انقطاع.

– ديمة: ولكنّني أشعر بالحزن العميق دونكِ يا أمّي. الأطفال جميعهم عندهم أمّهات، ولكنّني محرومة من حنانكِ. أحتاج إليكِ.

– أمّي بحزن بالغ: وأنا أيضًا أفتقدكِ. وأتمنّى لو أنّكِ تعيشين معي هاهنا في الجنّة حيث عالم الأخيار الطّيبين الذين يُدخلهم الله الجنّة جزاء أعمالهم الطّيبة الخيّرة.

– نجيبة: بأيّ الأعمال دخلتِ الجنّة يا عفاف؟

– أمّي: دخلتها بإحساني إلى ابنتي ديمة؛ فأوّلًا رضيتُ بقضاء الله وقدره عندما قدّر أن يخلقها تعاني من مرض (متلازمة داون)، ثم

رفضتُ أن أجهض حملي بها، وبعد ذلك شكرتُ الله الذي وهبني ابنة جميلة مثلها حتى ولو كانت مريضة، ورعيتها بكلّ حنان، ودفعتُ حياتي ثمنًا للدّفاع عن حياتها، وبذلك وهبني الله الجنّة. أنتِ يا ديمة سبب سعادتي في الحياة وفي الآخرة. لقد كنتُ محظوظة لأنّ الله وهبني ابنة مثلَك.

– ديمة بفضول: هل كلّ من يرعى ابنًا مختلفًا من ذوي الإعاقات سيدخل الجنّة يا أمّي؟

– أمّي: لعلّ الله يكرمهم بالجنّة؛ فهو العظيم الرّحيم الذي يجزل العطاء لكلّ من يصبر على قضائه، ويحسن إلى الآخرين إحسانًا جميلًا. هناك في الجنّة كثير من الآباء والأمّهات الذين دخلوها لأنّهم أحسنوا رعاية أبنائهم وبناتهم من ذوي الإعاقات، ولم يتخلّوا عنهم.

– ديمة: يا أمّي! هل يعني كلامكِ هذا أنّكِ لستِ حزينة لأنّ الله وهبكِ ابنة مريضة بمرض ملازم اسمه (متلازمة داون)؟

– أمّي بحنان وهي تضمّني نحو صدرها، وتمسِّد على شعري بحنان وفرح: بل أنا أسعد امرأة في العالم؛ لأنّ الله وهبني ديمة الجميلة.

– ديمة: أمّي أنا أحبّكِ جدًّا. لا أريد أن أفارقكِ أبدًا.

– أمّي: وأنا أيضًا أرغب في أن أظلّ بجانبكِ إلى الأبد.

– أبي برجاء: هل تستطيعين أن تعودي معنا إلى الأرض يا عفاف؟

– نجيبة: هل يمكنكِ أن تهجري الجنّة، وأن تعودي معنا إلى الأرض لأجل ديمة؟

– أبي: بل لأجلنا جميعًا.

– أمّي بفرح وحماس: لقد حصلتُ على إذن خاصّ من الحياة الآخرة لأعود إلى الأرض حيث الحياة الدّنيا لأعيش معكم من جديد.

– نجيبة: هل يمكن أن يغادر الموتى عالم الحياة الآخرة؟

– أمّي: أنا في الجنّة، وأهل الجنّة تُحقّق أحلامهم وطلباتهم بفضلٍ من الله، وقد طلبتُ أن أعود إلى الحياة الدّنيا كي أرعى ابنتي الحبيبة ديمة، وقد حصلتُ على الموافقة على ذلك.

– أبي بفرح: هل يمكن أن تعودي معنا الآن؟

– أمّي بابتسامة عريضة: نعم، يمكنني أن أعود معكم إلى الحياة الدّنيا متى شئتم ذلكَ.

– ديمة بفرح غامر وحماس كبير: وهل ستعيشين معنا طوال الوقت؟

– أمّي بفرح: نعم، سأعيشُ معكم الوقت كلّه، وسوف أكرِّس وقتي كلّه لأجل رعايتكِ يا ديمة.

– ديمة وهي ترتمي في حضن أمّها من جديد: أمّي، أنتِ أعظم أمٍّ في الدّنيا. أنا أحبّكِ. هيا لنعد إلى بيتنا.

أمّي العطريّة

لقد هجرتْ أمّي عفاف الجنّة لتعود معي إلى الأرض كي ترعاني، بعد أن ودّعت أصدقاءها وصديقاتها في الجنّة، وحملتْ منهم رسائل سلام لأهاليهم وأقاربهم وأصدقائهم في الحياة الدّنيا، ثم انزلقتْ معنا في الفجوة النّورانيّة، فعدنا جميعًا إلى بيتنا في بيت ديمة.

أبي قال لي إنّ ما فعلته أمّي بعودتها إلى الحياة الدّنيا يُعدّ تضحية مستحيلة؛ فلا أحد يهجر الجنّة بعد أن دخلها، ولكنّ أمّي قد فعلتْ ذلك لأجل أن ترعاني. لا بدّ أنّ الله سيدخلها الجنّة من جديد عندما تعود إلى الحياة الآخرة؛ لأنّها أعظم أمٍّ في الدّنيا.

لقد أصبحت الحياة أجمل منذ أن عادتْ أمّي عفاف للعيش معنا؛ كلّ مكان في البيت غدا يضحك كلّما ضحكتْ، أصبحتُ أشعر أنّني أقوى طفلة في الكون؛ لأنّ لي أمًّا عظيمة ترعاني، اتّسعتْ ابتسامة أبي، وباتتْ عمّتي نجيبة تزورنا كثيرًا لتستوفي أحداث الرّواية التي تكتبها، وغدتْ أمّي وجدّتي ترويان الحكايات لي بالتّناوب.

ظلّت أمّي تلبس ملابس الجنّة البيضاء الفضفاضة التي تتضوّع أريجًا كلّما تحرّكتْ، وبات الجميع يعرف بوجود أمّي في المكان من رائحتها العطريّة الجميلة، فأسماها الأطفال في بيت ديمة باسم «الأم عفاف العطريّة»، حتى من يصافح أمّي تعلق رائحتها الجميلة بيديه.

أمّي أصبحت المشرف الرّئيسيّ على تعليمي وعلى تعليم أصدقائي في صفّ مرضى (متلازمة داون)، هي متفرّغة تمامًا لرعايتي وتدريسي وتدريس الأطفال في بيت ديمة، كما أنّها تقدِّم دروسًا تثقيفيّة صحيّة ونفسيّة لأولياء أمور أطفال بيت ديمة، وتقوم بفحوصات دوريّة شهريّة للأطفال كلّهم، وفي معظم الأحيان تشارك أبي في اتّخاذ قرار قبول الأطفال الجُدد، وتساعد في تصنيفهم وفق أنواع أمراضهم وحالاتهم وقدراتهم.

أبي أيضًا قد أصبح مشرق الوجه منذ عادتْ أمّي للعيش معنا، وباتْ يمضي المزيد من الوقت في رحلاته في الفجوة النّورانيّة بحثًا عن المزيد من الأطفال المختلفين، واطلاعًا على أحدث سُبل تعليمهم وتأهيلهم دون أن يقلق عليّ كما كان يقلق عليّ في الماضي عندما كان يتركني وحيدة أنتظر عودته.

وكثيرًا ما يزور أبي فرح ومايكل في بيتهما، ويتشاور معهما في أمور تطوير بيت ديمة، ويحصل منهما على المزيد من التّبرّعات التي يقومان بجمعها في سبيل دعم بيت ديمة، وأحيانًا يزورهما لأجل أن يلعب مع طفلهما الصّغير الذي رُزقا به أخيرًا، فهو مصدر سعادة لكلّ من يراه ويلاعبه.

أمّا فرح ومايكل فقد اتّسع قلب كلٍّ منهما، وأصبحا أكثر حنانًا؛ لأنّ حبّهما أصبح أكبر وأعظم منذ أن رُزقا بابنهما الصّغير ذي الشّعر الأشقر والبشرة البيضاء والعينين السّوداوين.

أمّي في غزّة

أمّي عفاف لا تخلع أبدًا ملابس الجنّة التي عادتْ بها من الحياة الآخرة، وقد اعتاد الجميع على مظهرها الطّاهر الآمن الذي يبعث الفرح والسّكينة في النّفس، كما اعتادوا رائحتها العطريّة المميّزة التي تُعرِّفهم بوصولها إلى مدرسة بيت ديمة، عندما تغمرهم بأريجها الجميل الذي يصل بسرعة إلى أنوفهم الصّغيرة.

والمفاجأة الجميلة كانت عندما علمنا أنّ هذه الرّائحة العطريّة تزداد قوّة وجمالًا وتأثيرًا في من يشمّها كلّما قامت أمّي بعمل إحسان أو خير، وبما أنّ إحسان أمّي لأطفال بيت ديمة لا ينقطع؛ فإنّ رائحتها العطريّة في تزايد دائم.

لقد طوّفت أمّي وأبي في كثير من بلاد الدّنيا ليوصلا رسائل بعض أهل الجنّة إلى ذويهم، وظلّ في حوزتهما رسائل لأهل غزّة من ذويهم الشّهداء في الجنّة. لقد كان أمر الوصول إليهم سهلًا عبر الفجوة النّورانيّة، ولكن من الصّعب الوصول إلى أصحاب الرّسائل في ظلّ الحصار على غزة، وقصفها الوحشيّ من العدوّ الصّهيونيّ.

لكنّ أمّي ظلّت مصمّمة على أن توصل رسائل شهداء غزّة إلى ذويهم، وقد سافرتْ مع أبي عبر الفجوة النّورانيّة إلى الأنفاق السّريّة التي حفرها الفلسطينيون في غزّة لأجل أن يُهرِّبوا عبرها الغذاء والدّواء والأسلحة للجهاد ضدّ العدو الصّهيونيّ المحتلّ الذي حاصرهم، ومنع عنهم الغذاء والدّواء كي يقتلهم جميعًا.

هبط أبي وأمّي بصحبتي وبصحبة العنزة شقراء في نفق عملاق حيث المجاهدون الفلسطينيون يلتفّون حول زعيمهم محمد دياب إبراهيم، وكنيته أبو خالد. لقد كان مشلولًا، ويجلس على كرسي متحرك، كما كان مقطوع اليّد أعور العين، ولكنّه على الرّغم من ذلك كلّه يملك إرادة جبّارة تجعله يقود المجاهدين الفلسطينيين عبر الأنفاق، ويرفض أن يستسلم لعدوه الصّهيونيّ.

لقد استقبل أمّي بكلّ فرح، وأخذ منها رسائل أهل الجنّة من شهداء غزّة ليوصلها إلى ذويهم، ووعد بأن يوصلها إلى أصحابها بعد أن يتوقّف القصف الصّهيونيّ الغاشم على المدنيين الفلسطينيين في غزّة، كما سأل عن أصدقائه الشّهداء الذين جاهدوا معه حتى انتقلوا إلى جوار ربّهم، فأخبرته أمّي أنّهم يعيشون في الجنّة في أعلى مراتبها، وأنّ الله عزّ وجلّ قد اصطفاهم بالرّحمة وبالقرب منه.

الشّيخ المناضل أبو خالد محمد دياب إبراهيم عرض على أمّي عفاف أن تستضيف بعض الأطفال من ذوي الإعاقات من غزّة إلى حين انتهاء الحرب بعد أن سمع عن مدرسة بيت ديمة، فوافقت أمّي على ذلك بكلّ سرور وترحيب.

لقد عاد الأطفال الغزاويون معنا إلى بيت ديمة عبر الفجوة النّورانيّة، وجميعهم قد أصبحوا من ذوي الإعاقات بعد أن أصابتهم قذائف صهيونيّة، وهم في بيوتهم أو مدارسهم أو أحيائهم السّكنيّة.

أمّي عفاف قضتْ فترة طويلة تبذل اهتمامها كاملًا لأولئك الأطفال الذين جاءوا من غزّة، وقد خصّصتْ لهم دروسًا تأهيليّة

جسديّة ونفسيّة مدروسة ومتقدّمة كي تساعدهم في تجاوز محنهم الجسديّة والنّفسيّة، وكثيرًا ما كانتْ تأخذهم في رحلات سريعة عبر الفجوات النّورانيّة إلى غزّة ليزوروا أهاليهم على عجل، ثم يودّعوهم على كره منهم؛ ليعودوا إلى بيت ديمة، وذلك بعد أن أشرفتْ على علاج المصابين منهم جرّاء قصفهم من العدوّ الصّهيونيّ.

كما حَدَّثت الأطفالَ في بيت ديمة عن البطل محمد دياب إبراهيم الذي يعاني من عدّة إعاقات، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يدافع عن وطنه، وأن يحارب العدّو الصّهيونيّ عبر الأنفاق التي أصبحت تُشكِّل رعبًا للعدوّ المحتلّ لفلسطين، كما حدّثتهم عن تجارب زملائهم الأطفال الذين جاءوا من غزّة مصمّمين على أن يعودوا إلى وطنهم ليدافعوا عنه.

أبي وسّع مشروع بيت ديمة كي يستضيف فيه المزيد من ذوي الإعاقات من ضحايا الحرب من الأطفال في العراق وسوريا واليمن ولبنان وليبيا وتونس وبقاع أخرى من العالم، ولكنّه كان يبدي ألمه البالغ لأنّ مشروعه أصغر من أن يتّسع لكلّ الضّحايا والمصابين وذوي الإعاقات من الأطفال، ولذلك قام بمراسلة فرح ونجيبة اللّذين تواصلا مع كثير من المؤسّسات الدّوليّة المعنيّة بمساعدة الأطفال ذوي الإعاقات لأجل تأمين الخدمات والتّعليم والمأوى والأمن والحماية للأطفال الضّحايا في دول الوطن العربيّ حيث النّزاع المسلّح والانفلات الأمنيّ.

أخي سيف

قام أبي بإطلاق مشروع (أخي الإنسان)، وذلك بالتّعاون مع المعلّمات في بيت ديمة، وهو مشروع هدفه الأساسيّ أن يتواصل أطفال البيت مع نظرائهم من ذوي الإعاقات لتبادل الخبرات معهم، والاستفادة من تجاربهم في التّعلم والتّأقلم مع ذواتهم ومع المجتمع.

لقد شارك كثير من أطفال بيت ديمة في هذا المشروع الممتع عبر استخدام تقنيّة الرّسائل الإلكترونيّة ومواقع التّواصل الاجتماعيّ، لكن طائفة كبيرة من الأطفال لم تستطع أن تنخرط في هذا البرنامج بسبب ظروف إعاقة أطفالها، ولذلك كان برنامجهم التّواصليّ يركّز على أن يتواصلوا مع الأصدقاء في بيت ديمة بشكل مباشر بدل أن يكون تواصلهم مع نظرائهم عبر وسائل التّواصل الإلكترونيّة.

كنتُ أرغبُ في أن أحظى بصديقة من ذوي الإعاقات على أن تكون مصابة مثلي بـ(متلازمة داون) لأجل أن أستفيد من خبرتها في التكيّف مع حالتها، وكنتُ أُفضِّل أن تكون من مُواطني الدّول المتقدّمة التي تبذل جهودًا كبيرة في خدمة ذوي الإعاقات؛ لأعرف آخر مراحل التّقدّم التي وصلتْ إليها تلك الدّول في تأهيل أمثالي من الأطفال وإعطائهم حقوقهم موفورة غير منقوصة، لكنّني حظيتُ بصديق اسمه سيف، هو طبيب حديث التّخرّج، ويكمل الدّراسات العليا في الطّب البشريّ

في إحدى الولايات الأمريكيّة، وله اهتمام كبير بذوي الإعاقات؛ لأنّ إحدى أخواته مصابة بـ(متلازمة داون).

في البداية خِفتُ كثيرًا من التّواصل معه؛ لأنّه مثقّفٌ وذكيٌّ، ولديه كثير من المعلومات والأسئلة التّي يوجِّهها إليّ، وأحيانًا لا أفهم كثيرًا ممّا يقوله، ولكنّني بالتّدريج أحببتُ صداقته، وأسميته «أخي سيف»؛ فقد كان عونًا لي في إعطائي كثيرًا من المعلومات حول التّواصل والتكيّف مع حالتي، وقد حَدَّثته عن حلمي بأن أكون أمًّا عظيمة عندما أكبر مثل أمّي عفاف، عندها قام ببحث علميٍّ عن الموضوع، وخلص إلى أنّ هناك حالات من الزّواج بين مرضى (متلازمة داون)، وأنّ هذا الزّواج قد تمخّض عنه ولادة أطفال طبيعيين لا يعانون من أيّ أمراض أو إعاقات، ولذلك فقد شجّعني على أن أسير وراء حلمي حتى أحقّقه.

سيف هو أخي الحبيب الذي لم تلده أمّي، ولا يحمل اسم أبي، ولكنّه يُقدِّم العون لي كأنّه أخي، وهو يقوم بالتّعريف الدّائم ببيت ديمة، ويقدّم له العون الماديّ والمعنويّ، ويدعو المهتمّين به إلى التّواصل معه ودعمه، كما يقوم بكثير من الدّراسات حول طاقات ذوي الإعاقات وإمكانياتهم واحتياجاتهم، وينشر هذه الدّراسات، ويعمّمها على المؤسّسات بهدف دفع عجلة الاعتناء بتلك الفئة من البشر.

أمّي قد وَجَّهت إليه أكثر من دعوة كي يزورنا برفقة أخته لنتعرّف عليهما، وقد وعد بأن يفعل ذلك في يوم ما، وأنا في انتظار هذه الزّيارة.

الفصل الثّالث

درب الأحزان

"أنا لا أستطيعُ أن أصافحكَ باليدِ. لكن ربما أطلبُ منكَ أن تحضنني. تعلّمتُ أنّني لستُ المعاق الوحيد؛ فالبشر جميعهم لديهم إعاقات؛ فالخوف إعاقة، والخجل إعاقة، والتّردد إعاقة".

نيكولاس فوجيسيك

أبي رفض أكثر من مرّة أن يسمح لنا بمرافقته والمعلّمة نعيمة في رحلاتهما الكثيرة عبر عوالم الفجوة النّورانيّة، حيثُ كانا يطّلعان على تجارب تعليم الأطفال المختلفين، ويحضران معهما كثيرًا من المناهج والكتب والوسائل التّعليميّة والوسائط التّدريبيّة من الأماكن التي يزورونها، وكثيرًا ما أحضرا معهما بعض أجهزة التّدريب والكراسي المتحرّكة الجديدة لأطفال بيت ديمة الذين لا يستطيعون المشي، أو يجدون صعوبات في الحركة، بل إنّهما قد عادا -في أكثر من مرّة- بصحبة بعض المربّين والمعلّمين المتخصّصين في التّعليم والتّدريب الجسديّ في حقول تعليم ذوي الإعاقات ليعطوا أطفال بيت ديمة بعض الدّروس والمهارات.

وفي مرّة استطاعا أن يقنعا معلّماً متخصّصًا في قضايا التّدريب والتّأهيل الجسديّ بأن يأتي معهما إلى بيت ديمة؛ ليعطي دورة مكثّفة لمعلّمات البيت لأجل تأهيلهنّ في التّعامل مع الطّلبة ذوي الإعاقات المتقدّمة.

ولكنّنا لم نقبل برفض والدي اصطحابنا معه، ودَبَّرنا جميعًا خطّة كي نسافر سرًّا عبر الفجوة النّورانيّة إلى عوالم أخرى كي نسيح فيها، ونستمتع بأجوائها، وقد رتّبنا هذه الخطّة دون علم المعلّمات أو علم أبي وأمّي، وقد ساعدتنا عنزتي شقراء في هذا الأمر، وفي استراحة الغداء تسلّلنا جميعًا بعضنا يساعد بعضًا حتى وصلنا إلى الغرفة السّريّة في الطّابق الأرضيّ في بيت ديمة، بعد أن أدخلتْ عنزتي شقراء الرّقم السّريّ في حافظة إغلاق الباب الفولاذيّ، بعد أن سرقته من أبي، ففُتح الباب بشكل إلكترونيّ، وإطاره المعدنيّ يتوهّج بضوء أحمر قانٍ، ثم ضغطتْ عنزتي شقراء على لوحة الشّاشة في جهاز التّحكم المقترن بالغطاء الكربونيّ للفجوة النّورانيّة عبر منظومة كهروذريّة، ثم زوّدها «رامز» بتفاصيل الزّمن الذي نبغي الانزلاق فيه، كما حدّد إحداثيّات خطوط الطّول والعرض للوجهة التي نقصدها، ثم أثبتَ عددنا وأعمارنا وأوزاننا كي يتلاءم الحامل الذّريّ مع حاجاتنا من الأكسجين في انزلاقنا، ويوافق بين الضّغط الدّاخليّ للفجوة وقدرة أجسامنا على احتماله؛ فصديقنا رامز هو من كان المسؤول عن تحديد زمن القفزة في الفجوة النّورانيّة؛ فهذا الأمر يحتاج إلى دقّة زمنيّة، ورامز يجيد ضبط السّاعات وإصلاحها وإجراء العمليّات الرّياضيّة؛ فهو مصاب بالتّوحّد من فئة (اسبرقز)، وهذا يعني أنّه من المتوحدين الأذكياء الذين يمكن أن يكونوا عباقرة لو حصلوا على التّعليم

المناسب لهم، ولكن أسرته أهملته طويلًا، وقد بدأ في الدّراسة متأخّرًا بعد أن انضمّ إلى مدرسة بيت ديمة، وهو لا يدرك في العالم سوى المعادلات الرّياضيّة، وزادتْ معرفته بها عندما بدأ يتلقّى دروسًا خاصّة ومتقدّمة في الرّياضيات والفيزياء التي يبدي فيها عبقريّة واضحة، وهو يكرّر دون توقّف كلمته المحبّبة: تك تك تك، ومن يقطع عليه ترديده لكلمته الأثيرة يصيبه بجنون وغضب عارم، ويدفعه إلى أن يدخل إلى حالة هستيريّة من التّكسير والصّراخ والبكاء.

كان من الصّعب أن نشرح لرامز الذي يحبّ الوحدة ويكره الحديث الطّويل مع الأطفال، ما نريده منه بالضّبط بسبب لغتنا المبعثرة وإدراكنا المشوّش لكثير من قضايا السّفر عبر الفجوة النّورانيّة، ولكنّه فهم سريعًا ما نريد منه لأنّه ذكيٌّ جدًّا، وأبدى رغبته في مساعدتنا عبر صمته، وانغماسه في إجراء الحسابات الرّياضيّة لأجل تحديد زمن القفزة في الفجوة النّورانيّة، كي نزور أصدقاءنا أصحاب الإعاقات من أطفال العالم.

وقفنا جميعًا ننتظر بلهفة لحظة البداية للانزلاق في الفجوة النّورانيّة، بعد أن حضر كلّ أطفال بيت ديمة مهما كانت إعاقاتهم صعبة ومعقّدة، ويصعب التّنقّل بسببها، حتى الجرحى من ذوي الإعاقات من غزة ومن سائر أنحاء العالم أتوا معنا.

فجأة انفتحت الفجوة النّورانيّة، فقفزنا فيها جميعًا بعد أن دَفَعْنا

الكراسي المتحرّكة التي يجلس عليها بعض أصدقائنا المصابين بالشّلل، أو الذين لا يستطيعون التّحرك، وقدنا أصدقاءنا الذين حُرموا من نعمة البصر، وشرحنا الأمر بلغة الإشارة لأصدقائنا الذين يعانون من الصّمم، وكان قفزنا بعد أن حدّد رامز اللّحظة المواتية لذلك بحركة بندوليّة من يديه، ثم قفز هو بعدنا، ثم قفزت الماعز شقراء بعد الجميع.

وبلمح البصر وجدنا أنفسنا في مدرّج يونانيٍّ قديم، النّاس فيه مجتمعون حول رجل كبير عجوز يخطب فيهم خطبة طويلة، والنّاس تستمع إليه باهتمام كبير وتأييد واضح. سألنا بدهشة من هذا الرّجل؟ فأجابت العنزة شقراء: إنّه أفلاطون.

– من أفلاطون؟

– هو فيلسوف.

– وماذا تعني كلمة فيلسوف؟

أجابت مريم التي تعاني منذ ولادتها من شلل في قدميها ويديها، ولكن إدراكها العقليّ في أفضل صورة، وهي تُعدّ العقل المدبّر والقائد الفكريّ في مدرسة بيت ديمة: تعني: رجل عنده أفكار تفيد النّاس.

– هل هو معلّم؟

– شقراء: نعم هو معلّم للبشرّية كلّها.

– أين نحن الآن؟

– أعتقد أنّنا في عصر الإمبراطوريّة الإغريقيّة قبل الميلاد.

– هل هذا زمن بعيد؟

– شقراء بحماس: إنّه بعيد جدًّا.

رفع أفلاطون يده اليمنى ملوّحًا للجميع، وشرع يتكلّم كلامًا بنبرة آمرة خشنة بلغة لا نفهمها.

– ماذا يقول؟ نحن لا نفهم لغته. قولي لنا يا شقراء ماذا يقول؛ فأنتِ تفهمين اللّغات جميعها.

– شقراء بخوف شديد وقلق بادٍ: إنّه يقول: يجب أن نتخلّص من أصحاب العاهات، لا مكان لهم في مجتمعنا، لا مكان لهم في مجتمع الجمهوريّة المثاليّة التي أدعو إلى إقامتها؛ إنّهم فئة خبيثة، علينا أن نقضي عليهم.

سأل «ناهض»، الطّفلُ القادم من غزّة، ويمتاز بالقوّة والشّجاعة، ولا يبكي أبدًا مهما اشتدّ عليه ألم جسده: هل هو صهيونيّ؟

– «مراد» الطّفل القادم من غزّة: فالصّهاينة هم مَنْ يذبحون الأطفال والكبار دون رحمة.

– ما معنى صهيونيّ؟

– ناهض: يعني: إنسان محتلٌّ، قد احتلّ فلسطين بقوّة السّلاح، ويقتل الأبرياء الفلسطينيين دون ذنب!

– مريم باضطراب: يا أصدقائي، نحن في خطر، علينا أن نهرب من هذا المكان المتوحّش؛ فهو يريد قتلنا.

– لماذا؟

– لأنّنا من ذوي الإعاقات.

– ولكن إلى أين نذهب؟

– العنزة شقراء: نذهب إلى مكان بعيد عن هذا الفيلسوف القاسي.

– المهمّ أن نهرب من هذا المكان في أسرع وقت.

– صوت قريب منهما: أسرعوا في الهرب.

التفتَ الجميع إلى مصدر الصّوت، فوجدوه شابًّا وسيمًا يلبس رداء أبيض يشبه الرّداء الذي يلبسه أفلاطون، وينتعل حذاء جلديًّا له رباط قنّب يمتدّ حتى الرّكبتين، ويقول لهم هامسًا بقلق: عليكم أن تهربوا إلى أبعد مكان يا إخواني؛ ففي القريب لن تجدوا من يرغب فيكم.

– من أنتَ؟

– أنا أحد تلاميذ أفلاطون، لكنّني غير راضٍ عن رأيه في نبذ ذوي الإعاقات؛ فهم بشر يستحقّون محبّتنا واهتمامنا.

– مريم بحزن: هذا ظلم كبير.

– بل قد تجدون أنفسكم في حلبة المصارعة القاتلة، لينتهي الأمر بكم إلى الموت بغية التّرفيه عن الحضور وإضحاكهم.

– يا لهم من قساة ظلمة!

– تلميذ أفلاطون بحزن وخجل: هذا صحيح. إنّهم قساة وظلمة؛ ولذلك عليكم أنْ تهربوا من هذا المكان سريعًا.

– الحقُّ معكَ، علينا أن نهرب سريعًا من هذا المكان وهذا الزّمان.

– تلميذ أفلاطون بحزن وخجل واشمئزاز: مدينة روما ومدينة إسبارطة تقضيان بإعدام الأطفال المعاقين، وتعتقدان بأنّ أرواحًا شريرة تتقمّصهم، وقوانين المشرّعين ليكورجوس الإسبارطي والأثيني سولون تسمحان بالتّخلّص ممّن يعانون من إعاقة تمنعهم من العمل، أو من الاشتراك في الحرب.

– لم نفهم. ما معنى هذا الكلام؟

– ماذا يعني مُشرِّع؟

– العنزة شقراء: يعني: إنسان يضع القوانين للنّاس ليعيشوا وفقها.

– هذا ليس وقت الأسئلة. أنا خائف.

– مريم بقلق واضح: إنّنا في خطر محدق، ويجب أن نهرب سريعًا من هذا المكان.

– إلى أين نذهب؟

– نذهب إلى أقرب فجوة نورانيّة.

– إذن هيّا بنا.

بخوف شديد سارعنا إلى القفز في الفجوة النّورانيّة لنسقط جميعًا داخل أسوار مبنى عملاق قديم داكن اللّون، وأسواره عالية، وفيه كثير من الأشجار.

– أين نحن الآن؟

– شقراء دون رضا: نحن في مصحّة للأمراض العقليّة والجسديّة في بريطانيا في العصور الوسطى.

– ماذا تعني المصّحة العقليّة؟

– ماذا تعني كلمة بريطانيا؟

– ماذا تعني العصور الوسطى؟

– بريطانيا هي جزيرة كبيرة في البحر قبالة قارة أوروبا، والعصور الوسطى زمن بعيد عن زمننا، والمصحّة العقليّة مكان لعلاج المرضى من أمراضهم العقليّة والنّفسيّة.

– كيف عرفتِ معلومات عن هذا المكان؟

– ردّت مريم باعتزاز لأنّها تعرف معلومات لا يعرفها الآخرون: قرأتُ عن المصحّات العقليّة في بريطانيا وأوروبا في العصور الوسطى في الشّبكة العنكبوتيّة في درس التّاريخ. ألا تذكرون أنّنا قرأنا عنها في درس التّاريخ؟

– لا أتذكّر ذلك.

– أنا أتذكّر ذلك.

– هل هذا المكان جميل؟

– بل هو مكان رهيب.

– هل فيه أصدقاء لنا؟

– هو يعجُّ بأصدقائنا من ذوي الإعاقات، لكنّهم يعيشون في ظروفٍ صعبةٍ .

– لماذا؟

– لأنّهم من ذوي الإعاقات.

– لا نصدّقكِ. نريد أن نتجوّل في هذا المكان.

– لعلّه مكان جميل.

– بل هو مكان رهيب.

– ولكنّ المبنى جميل، وأشجاره كبيرة ووارفة الظّلال، وفيها كثير من العصافير المغرّدة.

– ولكن البشر في الدّاخل شديدو القسوة والظّلم.

بدأ الأصدقاء في التّجول في المكان خفية دون أن يراهم أحد، كان المكان يتكوّن من غرف كثيرة مظلمة، وسراديب تنتهي بأبواب عتيقة موصودة ينبعث من ورائها صوت بكاء وصراخ واستنجاد وكلمات غير مفهومة.

لم يكن المكان جميلاً، بل كان مرعبًا؛ كان هناك أشخاص من ذوي الإعاقات من كلّ الأعمار ومن الجنسين ومن كافّة الإعاقات، كلّهم كانوا مكبّلين بالأغلال الحديديّة، وبعضهم كان يتعرّض للتّعذيب الجسديّ من الأطباء والممرضات والموظفين في هذا المبنى، وبعض آخر كان جائعًا لأنّ لا أحد يُقدِّم الطّعام إليه، وكثيرون كانوا دون ماء أو غطاء أو علاج أو تسلية أو دفء، وبعضهم كانوا عراة أو شبه عراة، وعلى جلودهم آثار ضرب وتعذيب، جميعهم كانوا مسجونين في هذا المكان، ويشعرون بالحزن والوحدة والألم والخوف.

– ناهض بحزن: هل هذا المكان هو معتقل صهيونيّ لتعذيب الأطفال؟

– قال «رجائي»، وهو من أطفال العراق من ذوي الإعاقات: لا، بل هذا معتقل أمريكيّ لتعذيب أطفال العراق وإبادتهم.

– «رشيدة» بثقة، وهي من أطفال سوريا من ذوي الإعاقات: لا، هذا المكان بكلّ تأكيد هو سجن للإرهابيين في سوريا حيث يُقتل الأطفال فيه دون ذنب أو سبب.

– مريم: لا، هذا المكان هو مصحّة عقليّة في إنجلترا في العصور الوسطى.

– ديمة: هل أنتِ متأكّدة من ذلك؟

– مريم: نعم، أنا متأكدة تمامًا من ذلك.

– العنـزة شـقراء: مـا تقولـه مريـم صحيـح؛ فهـذا المـكان هـو مصحّـة عقليّـة.

– ناهض بارتياح: هذا أفضل من أن يكون معتقلًا صهيونيًّا.

– شـقراء بحـزن وهلـع: انظـروا إلى مـا هـو مكتـوب باللّغـة الإنجليزيّـة في هـذه الورقـة الملصقـة عـلى هـذا الحائـط.

– مـا المكتـوب فيهـا؟ فنحـن لا نتقـن اللّغـة الإنجليزيّـة، وأنـتِ يـا شـقراء تجيديـن اللّغـات جميعهـا.

– مكتـوب فيهـا إنّ الفيلسـوف البريطـانيّ هيربـرت سـبنسر ينـادي بعـدم تقديـم أيّ مسـاعدة لـذوي الإعاقـات؛ لأنّهـم عـبء عـلى كاهـل المجتمـع والإنسـانيّة.

– هل هو قاسٍ وشرير مثل أفلاطون؟

– نعم، هو مثله قاسي القلب، ولا يرحم أيّ معاق كان.

– ولا يريد مساعدتنا أبدًا.

– بل يريد قتلنا.

– يا له من قاسٍ لئيم!

– ناهض بثقة: لا بدّ أنّه صهيونيّ.

– لماذا يكرهوننا؟ ماذا فعلنا لهم؟

– مريـم بقلـق وعصبيّـة: هـذا ليـس الوقـت المناسـب لهـذه الأسـئلة. علينـا أن ننجـو بحياتنـا.

– شـقراء: لقـد أخطأنـا بحضورنـا إلى هـذا المـكان. علينـا أن نهـرب منـه قبـل أن يقبضـوا علينـا.

– «بـدر» الـذي يعـاني مـن العمـى: نعـم، علينـا الهـرب قبـل أن يُلقـوا القبـض علينـا، ونُحبـس في هـذا المـكان إلى الأبـد.

– وعندها لن نستطيع أن نعود إلى بيت ديمة أبدًا.

– ديمـة بحزن: وسـيحزن والداي كثـيرًا لأنّهما فقداني، وفقداكـم إلى الأبد. لا أريـد أن يحـزن والـداي. أنـا أحبّهـما كثيرًا، همـا طيّبـا القلب، ولا يسـتحقّان الحزن.

– أنا جائع.

– هذا ليس وقت الجوع.

فجـأة ظهـرتْ فتـاة ممزّقـة الملابـس تركـض نحونـا بخـوف وهلـع، شَـعَرَ أصدقائـي بالخـوف منهـا، ولكنّنـي قـرأتُ في أعماقهـا أنّ اسـمها «جـان»، وأنّهـا حبيسـة منـذ زمـن طويـل في هـذا المـكان الرّهيـب، وقـرأتُ في أعماقهـا أنّهـا ترجونـا أن نأخذهـا معنـا قبـل أن يلقـي الممرّضـون القبـض عليهـا مـن جديـد، ويسـجنوها مـرّة أخـرى في زنزانـة مظلمـة بـاردة نتنـة.

– يجب أن نأخذها معنا.

– ولكنّنا لا نعرفها.

– اسمها جان، وهي حبيسة في هذا المكان، يجب أن ننقذها منه.

صوت الكلاب والحرس بدأ يقترب منّا، شعر الأصدقاء برعب كبير، وأنا كذلك شعرتُ بالخوف الشّديد، وأخذتُ أبكي مستنجدة بأبي وأنا أحضن جان التي ترتجف بين يديّ خوفًا وبردًا، ولكن لا مجيب لاستنجاداتي.

عندها أمرتنا العنزة شقراء بالهروب من المكان عبر القفز في الفجوة النّورانيّة التي انزلقنا عبرها خائفين، لنجد أنفسنا في غرفة مظلمة منتنة، شعرنا بمزيد من الخوف، ونحن نسمع صوتًا غريبًا يئنّ بألم واضح، دون أن نستطيع أن نرى مصدر هذا الصّوت الموجوع، فظننّا أنّنا وقعنا في إحدى غرف تلك المصحّة المرعبة التي كنّا نريد أن نهرب منها.

– أين نحن الآن؟ هل حبسونا في المصحّة العقليّة؟

– العنزة شقراء: لا، لسنا في المصحّة، نحن في بيت في العصر الحديث، نحن الآن في قبو ذلك البيت.

– ما هذا الصّوت الذي نسمعه؟

– إنّه صوت بكاء.

– لا، هو صوت عواء.

– لا، بل هو صوت حيوان مفترس جريح.

– بل هو صوت إنسان شرّير يريد قتلنا.

صمت الجميع بقلق وترقُّب، وظلّ الصّوت المخيف يأتي متقطِّعًا من الظّلام، أرهفتُ السّمع، وبدأتُ أقرأ ما في نفس من أسمع صوت نحيبه، ثم قلتُ للجميع بأسى: لا تقلقوا، هذا الصّوت هو صوت «هناء».

– من هناء؟

– إنّها أختنا في المعاناة.

– هل هي جريحة؟

– لا، هي مربوطة في هذا القبو منذ سنوات، أهلها يشعرون بالعار منها؛ لأنّها مختلفة مثلنا، ولذلك يربطونها وحيدة في هذا المكان منذ سنوات كي لا يعرف أحد بوجودها، أو يكتشف حالتها، وهي تشعر بحزن شديد وخوف دائم.

– هل تستطيع الكلام؟

– لا، هي عاجزة عن الكلام وعن السّمع.

– إذن كيف عرفتِ أنّ اسمها هناء؟

– أنا من أسميتها هناء. فأنا لا أقرأ في أعماقها أيّ اسم لها.

– هل نأخذها معنا؟

– نعم، هي تريد أن تهرب من هذا المكان بأي شكل من الأشكال؟

– وهل سيقبل الدّكتور شجاع الورديّ بوجودها في بيت ديمة؟

– أبي سيقبل ذلك بكلّ تأكيد؛ فهو طيّب القلب، ويحبّ مساعدة كلّ طفل مختلف.

– إذن لنفكَّ وثاقها، ونهرب من هذا المكان البغيض.

– هيّا بنا.

– العنزة شقراء بصرامة: يجب أن نعود إلى بيت ديمة قبل أن يكتشف الجميع أمر سفرنا عبر الفجوات الزّمنيّة.

– هذه فكرة جيّدة.

– أنا جائع.

– وأنا جائعة.

– إذن لنعد سريعًا إلى بيت ديمة.

– هل هناك فجوة نورانيّة متاحة لعودتنا الآن يا رامز؟

– رامز: تك تك تك. الآن علينا أن نقفز في هذه الفجوة النّورانيّة. هيّا بنا.

أطعنا أمر رامز بالقفز سريعًا في الفجوة النورانيّة المتاحة، وسريعًا ما أوصلتنا الفجوة النّورانية إلى صحراء كبيرة قاحلة شديدة الحرارة والجفاف ليس فيها إلّا بعض الخيام وكثير من الإبل والأغنام والرّعاة والنّباتات الصّحراويّة وبعض النّخيل.

– ما هذا؟ نحن لم نعد إلى بيت ديمة!

– هذا مخيّب للآمال. لماذا نحن هنا؟

– بدر: درجة الحرارة مرتفعة. أين نحن الآن؟

– نحن في الصّحراء.

– أيّ صحراء؟

– شقراء: نحن في صحراء العرب قبل ألف وأربعمئة عام.

– لماذا نحن هنا؟

– لا أعرف.

– ما هذا الصّوت؟

– إنّها أصوات أطفال يطاردون طفلاً أعرج، ويضربونه بالحجارة، ويطردونه من المكان قائلين: يا أعرج يا ملعون.

– بدر بفضول: ألا يوجد من يمنعهم من هذا السّلوك البغيض؟

– الجميع راضون عن هذا السّلوك، والكبار يقفون يشاهدون ما يحدث ضاحكين، والطّفل الأعرج المسكين يصيح ألمًا من الحجارة التي أصابته في كلّ مكان من جسده، وأدمته.

– هيا نهرب من هذا المكان؛ فالعرب الجاهليّون يعاملون ذوي الإعاقات بقسوة ووحشيّة.

– معك حقٌّ.

– ذلك الطّفل المسكين الأعرج ألا نستطيع أن نأخذه معنا؟

– نعم، نستطيع أن نأخذه معنا.

– إنّه يقترب منّا.

– بمجـرّد اقترابـه منّـا اسـحبوه مـن يـده لينزلـق معنـا في الفجـوة النّورانيّـة.

– ناهـض بـكلّ شـجاعة: أنـا مـن سـوف يسـحبه. أسـتطيع أن أفعـل ذلـك.

– إنّه يقترب.

– لقد وصل.

– اسحبوه من يده.

– لقد أمسكنا بيده.

– الصّبي الأعرج بصوت يقطّعه اللُّهاث: أنا زيد الخير الفزاريّ.

– هذا ليس وقت الأسماء.

– علينا أن نقفز في الفجوة النّورانيّة.

– العنزة شقراء: اقفزوا في الفجوة النّورانيّة.

– رامز: اقفزوا جميعًا في هذه الفجوة النّورانيّة. تك تك تك.

– هيّا بنا.

قفزنـا جميعًـا في الفجـوة النّورانيّـة، وناهـض يشـدّ بيـده عـلى يـد ذلـك الصّبـيّ الأعـرج الـذي أدمتـه الحجـارة، وسريعًـا مـا وصلنـا إلى شـاطئ رمـليٍّ حـارٍّ يـشرف عـلى محيـط أزرق عمـلاق، وأشـجار جـوز الهنـد تحـفّ السّـاحل كلّـه.

ابتهجنـا لوجودنـا في هـذا المـكان الجميـل، وسـمعنا في الجـوار صـوت طبـول تقـرع دون توقّـف، كـما سـمعنا أصـوات بـشر يتكلّمـون بلغـة غريبـة لا نفهمهـا.

– أخيرًا قد وصلنا إلى مكان جميل رائع.

– دعونا نقضي هنا بعض الوقت.

– ولكنّني جائع.

– نستطيع أن نأكل بعض الجوز.

– أو نصطاد أسماكًا.

– ولكنّنا لا نعرف كيف نصطاد الأسماك.

– يمكن أن تعلّمنا العنزة شقراء ذلك.

– أنا أعرف كيف يُصطاد السّمك، كنّا نصطاده من ساحل بحر غزّة.

– العنـزة شـقراء بحـزم وقلـق وريبـة: بـل علينـا أن نغـادر هـذا المـكان بـأسرع وقـت ممكـن.

– لماذا؟

– إنّ المكان جميل وآمن.

– شقراء بثقة: إنّه مكان ملعون.

– لماذا؟

– هذا المكان هو مكان للحَجْر الصّحيّ لمرضى الجذام.

– ماذا تعني كلمة جذام؟

– العنزة شقراء: هو مرض خطير ومعدٍ، وهو يسبِّب تآكل الأطراف، كما يسبّب تقرّحات وتسلّخات مؤلمة جدًّا.

– وماذا يعني الحَجْر الصّحيّ؟

– العنزة شقراء: إنّه يعني عزلة جبريّة في مكان ما بسبب المرض الذي يمكن أن يكون معديًا للآخرين.

– وماذا يفعل المرضى هنا؟

– العنزة شقراء: نحن الآن في جزيرة من جزر المناطق الاستوائيّة في العصور الوسطى. المرضى بالجذام يُنقلون قسرًا من أوروبا وإفريقيا وأمريكا الجنوبيّة إلى هذا المكان القاسي عليهم.

– وهل يُعالجون هنا؟

– العنزة شقراء: لا، بل يعزلون هنا حتى الموت.

– هذا فظيع.

– بل مرعب جدًّا.

– العنزة شقراء: وأحيانًا تقوم الحكومات بمحارق كبرى في هذا المكان لتحرق المرضى جميعًا لتتخلّص منهم للأبد.

– اللّهم رحمتَك.

– العنزة شقراء: للأسف، هذه هي الحقيقة.

– ناهض: لا تقولوا لي إنّ من يفعلون هذه الأفعال الوحشيّة ليسوا صهاينة.

– رشيدة: أنا أشعر بخوف يشبه الخوف الذي كنتُ أشعر به عندما كنتُ أراقب الحروب الأهليّة الدّائرة في سوريا.

– رجائي: وأنا أيضًا خائف.

– يجب أن نهرب من هذا المكان.

– ألا نستطيع أن نأخذ المجذومين معنا؟

– لا أعتقد أنّ الحرس سيسمحون لنا بذلك. أخشى أن يحرقونا معهم.

– علينا أن نهرب سريعًا من هذا المكان.

– وإلّا سنخسر فرصتنا للهرب، والنّجاة من هذا المكان.

– سألتْ مريم رامزًا الذي كان يهز رأسه قائلاً: تك تك تك: هل لا تزال فجوتنا النّورانيّة متاحة؟

– رامز بقلق بادٍ: تك تك تك. ربما هي متاحة.

– العنزة شقراء: توجد فجوة هناك بالقرب من ذلك اللّسان البحريّ، أستطيع أن أراها من مكاني هذا.

– مريم بلهجة آمرة للجميع: هيّا بنا يا أصدقائي، أسمع أصوات الأبواق والطّبول تقترب منّا.

– شقراء وهي تركض سريعًا نحو اللّسان البحريّ: إنّهم الحرس. علينا بالرّكض سريعًا.

– أخشى ألا نعود أبدًا إلى بيت ديمة.

– ديمة بثقة: لا تخافوا، أنا متأكّدة من أنّنا سنعود إلى بيتنا.

– أخيرًا، هناك خبر جيّد، وهو العودة إلى البيت ديمة.

– أسرعوا، الأبواق والطّبول تقترب.

– من الصّعب أن نركض أسرع من ركضنا هذا؛ عجلات الكراسي المتحرّكة تغور في الرّمل أكثر فأكثر.

– جود معترضة: ونحن بالكاد نستطيع أن نركض معكم؛ فنحن لا نبصر دربنا.

– ولكنّنا نمسك بكم.

– ولكنّنا نخشى الرّكض في أماكن نجهلها.

قال «عون»، وهو مصاب بمرض (متلازمة داون)، وهو صديقي المفضّل، وابن صديق والدي، وهو طيّب القلب، دائم الابتسام، ويحبّ الجميع، ويرسل قبلاته عبر الهواء لكلّ غريب يقابله: أنا وجميل وإبراهيم نستطيع أن نحمل جود وبدرًا ونورين.

– ديمة بقلق: هل تستطيعون فعل ذلك؟

– عون بكلّ ثقة: بالتّأكيد؛ فأجسادنا قويّة كما ترين.

– إذن أسرعوا في ذلك؛ فالأبواق والطّبول تقترب منّا.

– شقراء برعب وتوتّر: ها قد بدأتُ أرى المشاعل تقترب منّا، لا بدّ أنّهم سيشعلون النّار في القريب.

– ولا بدّ أنّهم سيرغبون في شواء عنزة لتكون طعامًا لهم.

– العنزة شقراء: يا صديقي أنا كائن آليٌّ، وأنا مصنوعة من المعدن، لا لحم عندي لِيُشوَى، أو ليؤكل.

– هم لا يعرفون ذلك.

– ستكونين هدفهم الأوّل، وسيلقون بكِ في النّار سواء أكنتِ مصنوعة من المعدن أم مكتنزة باللّحم الطّري اللّذيذ.

– زادت شقراء من سرعتها في الرّكض قائلة: إذن أنا المستهدفة الأولى بهذه النّار. علينا بالهرب.

– ديمة بشفقة ومحبّة: لا تقلقي يا عنزتي شقراء، هم لن يأكلوكِ، بل ستعودين معنا إلى بيتي.

– الحرص واجب، علينا أن نسرع في الوصول إلى اللّسان البحريّ حيث الفجوة النّورانيّة.

وأخيرًا وصلنا إلى الفجوة النّورانيّة التي كادت تتقلّص في الماء لتختفي، قفزنا فيها جميعًا الواحد تلو الآخر، لنجد أنفسنا في لمح البصر قد وصلنا إلى الغرفة السّريّة في بيت ديمة.

الفصل الرَّابع

أرض الرَّحمة

"الرّاحمون يرحمهم الرّحمن. ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السّماء".

نبيّ البشريّة محمد ﷺ

لقد عرف أبي بشأن ما فعلناه، وغضب منّا غضبًا شديدًا؛ لأنّنا عرّضنا أنفسنا للخطر بالسّفر وحدنا عبر الأزمان، لكنّه رحّب بالأطفال الثّلاثة الذين عدنا بصحبتهم، وهم جان وهناء وزيد الخير الفزاريّ، إلّا أنّه وبّخنا قائلاً: كان فعلكم بالغ الخطورة؛ كان من الممكن أن تتعرّضوا لمخاطر قاتلة، أو أن تضيعوا في الأزمان الأخرى، أو العوالم الموازية، فأعجز عن إيجادكم.

– هذا مخيف.

– الحمد لله أنّنا لم نضع في الأزمان الأخرى أو العوالم الموازية.

– كان من الممكن أن تُعانوا معاناة لا حدّ لها في رحلتكم هذه.

– معكَ حقٌّ يا أبي. أرجو أن تسامحنا على ما اقترفناه من خطأ.

– العنزة شقراء بتوسّل: أرجوكَ سامحنا، الحمد لله أنّ الحرّاس لم يأكلونا في جزيرة المجذومين.

– أبي معاتبًا العنزة شقراء: لا أصدّق أنّكِ يا شقراء قد قمتِ بهذا الأمر.

– العنزة شقراء بتوسّل: أرجوكَ سامحني يا دكتور شجاع الورديّ، لقد اقترفتُ خطأ كبيرًا، ولكنّكَ برمجتني على أن ألازم ديمة إلى أيّ مكان تذهب إليه، وأنا كنتُ أنفّذ ما أنا مبرمجة عليه.

– كان يمكن أن تتعرّضوا جميعًا للموت.

– نعرف ذلك.

– وكان يمكن أن تضيعوا للأبد في الأزمان. إنّ السّفر بين الأزمان دوني هو محاولة انتحار بشعة.

– إذن السّفر عبر الأزمان دونكَ هو مجازفة كبرى.

– نعم، هذا صحيح.

– نعترف بخطئنا الكبير يا دكتور شجاع. أرجوكَ سامحنا.

– نعم، نرجوكَ أن تسامحنا.

– ديمة بتوسّل: أرجوكِ يا أمّي، اطلبي من والدي أن يسامحنا على فعلتنا.

– أمّي عفاف: هل تعدون بأنّكم لن تكرّروا هذا مرّة أخرى؟

– نعم، نعد بذلك.

– نعم، جميعنا نعد بذلك.

– أبي بتحفُّظ: أوافق على مسامحتكم على فعلتكم هذه على أن تَعِدوا بعدم تكرارها.

– نعم، نعدكَ بذلك.

– ولكن ألا يمكن أن تصطحبنا في رحلة تُسعد قلوبنا، وتفيدنا بدل رحلتنا المأساويّة المرعبة حيث الإساءة المستمرّة لأصحاب الإعاقات؟

– سأفكّر في الأمر، وأتناقش حوله مع المعلّمة نعيمة وسائر المعلّمات، ونخبركم بالنّتيجة.

– مرحى يا دكتور شجاع الورديّ.

– مرحى، مرحى.

– مرحى يا أبي.

شرائح التَّعقُّب

أبي ظلّ قلقًا علينا بعد أن قمنا برحلتنا الخطيرة نحو الماضي دون إذنه أو مرافقته، ولذلك فقد قام بتغيير الأرقام السّريّة الخاصّة بباب الغرفة السّريّة وبغطاء الكربون الخاصّ بفتحة الفجوة النّورانيّة، وربطهما ببصمة عينيه وبصمة عيني أمّي، وجعل شيفرة تغيير هذه البصمة العينيّة في وثيقة مغلقة موجودة في قاصة حديديّة في أمانات المصرف كي لا تصل أيّ يد إليها، وكذلك ربط شيفرة الباب ببرنامج تدمير آليٍّ؛ ليعمل على تدمير المكان كاملًا وردم بوابة الفجوة النّورانيّة إن حاول أحد أن يقتحم المكان كما فعلنا سابقًا عندما دخلنا إليه بشكلٍ سرّيٍّ؛ لأنّه يخشى أن يقع سرّ هذا المكان في يد شرّيرة تسخّره للشّر والإيذاء،

وهو مَنْ يحلم بأن يجعل من هذا السّر أداة لإسعاد البشريّة، كما هو يسخّره الآن لأجل مساعدة الأطفال المختلفين، وأخذهم في رحلات تعليميّة وعلاجيّة لأجل مساعدتهم على التّكيّف مع إعاقاتهم ومع مجتمعاتهم.

وكذلك صمّم أبي شرائح معلوماتيّة تعقّبيّة لكلّ طفل من أطفال بيت ديمة، وأثبتَ هذه الشّرائح تحت جلد ذراع كلٍّ منهم عبر إبرة صغيرة، إذ إنّ هذه الشّرائح لا تتجاوز مساحتها ملم مربّع، وهي مغذّية بالمعلومات التّعريفيّة بصاحبها، وبمجرّد غرسها تحت جلده تصبح فعّالة، وترتبط بالدّارة اللاسلكيّة التي خصّصها أبي لبيت ديمة، وربطها بقمر صناعيٍّ صمّمه بنفسه، وبثّه سرًّا في الفضاء في كبسولة تنفجر ذاتيًّا بعد أن توصل القمر الصّناعيّ الصّغير إلى المدار المطلوب، وهو قمر صناعيٌّ شبح لا تستطيع أجهزة التّرقّب والمتابعة أن ترصده، أو أن يراه من يسبح في الفضاء الخارجيّ. وبذلك يستطيع أبي عبر هذه الشّرائح المتعقِّبة أن يجد أيّ طفل من الأطفال المختلفين إن ضاع أو اختفى لأيّ سبب من الأسباب دون أن يستطيع أيّ بشر أو أيّ نظام أن يتتبّع ما تتتبّعه هذه الشّرائح.

وقد سجّل أبي رقم تدمير كلّ شيفرة في الملفات الشّخصيّة للأطفال، وجعلها جميعًا في عهدة أمّي، وأخبر الأطفال جميعهم وذويهم بأنّ من يتخرّج في بيت ديمة، ويريد مغادرته، يستطيع أن يأخذ رقم الشّيفرة التّدميريّة للشّيفرة التّعقبيّة الخاصّة به كي يتلفها بنفسه، ويصبح حرًّا تمامًا دون أيّ تعقّب.

وقد رحّب الأطفال وذووهم بهذه الفكرة، ووافق أولياء الأمور على أن يُثبِّتَ أبي هذه الشّرائح التّعقبيّة في أجساد أطفال بيت ديمة في مختبره الخاصّ بأبحاثه.

عينا ديمة

بدأتُ أقدر على تجسيد أفكاري في كلمات وجمل، أحيانًا أستطيع أن أكتبها على الورق، وذلك بفضل حصص تعليم الكتابة والإملاء والكتابة الوظيفيّة التي نتعلّمها مع المعلّمة نعيمة.

تعلّم الكتابة والقراءة أمر صعب جدًّا عليّ، ولكن أبي يقول إنّ من الواجب علينا جميعًا أن نتعلّم القراءة والكتابة كي نستطيع أن نتواصل مع البشر ومع حضاراتهم.

أمّي عفاف هي من ساعدتني على تعلّم القراءة والكتابة، لقد أمضتْ زمنًا طويلاً تدرّبني عليهما دون ضجر حتى بدأت أتقنهما. لها طريقة مدهشة في التّعليم، هي ليست أمّي الحبيبة فقط، بل هي معلّمتي الأثيرة التي لولاها لما تعلّمتُ شيئًا، التّعلّم مع أمي متعة حقيقيّة، لا تضاهيها متعة أخرى.

أصدقائي في بيت ديمة يتعلّمون القراءة والكتابة مثلي، نحن في مستويات مختلفة، وكلّ مستوى تعلُّمٍ فيه معلّمة مسؤولة عنه.

المعلّمة نعيمة هي من وزّعتنا على هذه المجموعات وفق قدراتنا وإمكانياتنا التي فحصتها عبر اختبارات متعدّدة، وقد ساعدها في إجراء هذه الاختبارات المدرّب المتخصّص الذي أحضره أبي معه في إحدى رحلاته في الفجوات النّورانيّة، فأقام عندنا زمنًا، ثم غادرنا بعد أن أعطانا عنوان بريده الإلكترونيّ، وطلب منّا أن نتواصل معه عندما نتعلّم الكتابة.

أنا استطعتُ أن أرسل رسالة إليه باسمي وباسم مريم؛ فهي لا تستطيع الكتابة بسبب شلل يديها، ولكن عندها كثير من الجمل الجميلة التي تقول إنّ فيها صورًا تشبيهيّة، لا أعرف تمامًا معنى كلمة تشبيهيّة، ولكنّني أعلم أنّها طريقة تجعل كلامنا أجمل وأوضح، وإذا قلتُ إنّ أبي في قلبي، فهذه تكون جملة تشبيهيّة؛ لأنّ أبي ليس في قلبي حقيقة، ولكن هذا يعني أنّني أحبّه كثيرًا، وهذه هي أجمل جملة تشبيهيّة أملكها في الحياة.

لكنّني حتى الآن لم أستطعْ أن أفهم لماذا يكرهنا البشر الذين لا يعانون مثلنا من إعاقات؟! نحن لم نؤذهم، وكذلك لم نخلق أنفسنا على هذه الشّاكلة حتى يعاقبونا. أمّي عفاف تقول: إنّ من يكره البشر دون سبب هو إنسان يملك قلبًا أسودَ.

المعلّمة نعيمة تقول إنّ الله يحبّنا، وإنّه اختارنا على هذا النّحو ليدخلنا الجنّة مقابل صبرنا ومعاناتنا، وقد حفظنا في درس الإيمان والعقيدة خطاب رسول الله ﷺ لأصحاب الإعاقات والأمراض: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ**

بِهَا خَطِيئَةٌ». إذن نحن في امتحان لا في عقوبة، ويجب على البشر أن يؤمنوا بهذه الحقيقة، وأن يكونوا عونًا لنا في الحياة، لا أعداء لنا.

تعلّمنا في الدّروس الماضية أنّ علينا أن نتحلّى بالصّبر، وأن نتعلّم كيفيّة التّعامل مع إعاقتنا، وأن نقبل بقدراتنا مهما كانت متواضعة، وألا نغضب عندما نعجز عن القيام بأمر ما، وأن نكرّر المحاولة في كلّ مرّة نفشل فيها حتى ننجح في تحقيق ما نصبو إليه في آخر المطاف. وما أكثر ما نفشل فيما نحاول أن ننجزه! ولكنّنا نستمرّ في المحاولة حتى ننجح، ونفرح بنجاحنا.

أمّي عفاف تحفّزني دائماً على الاستمرار في التّعلّم مهما كان الأمر شاقًّا، وجدّتي مليحة تحكي لنا حكايات عن الأطفال الذين صمّموا على العمل، فنجحوا فيه، ونحن نريد أن نصبح مثل أولئك الأطفال أصحاب الإرادات الحديديّة.

أنا وأصدقائي المصابون بمرض (متلازمة داون) كنّا الأكثر شعورًا بالكآبة، ولذلك فقد خضعنا لدروس أعدّتها أمّي عفاف لنا عن الفرح والتّفاؤل والأمل، وقد عملنا في رعاية الأطفال الذين يعانون من العجز عن الحركة من مرضى(متلازمة داون). عندها شعرنا بأنّنا محظوظون مقارنة بحالاتهم الصّعبة، وقد أجَدنا أن نعتني بهم، وأن نطعمهم، وأن ندفع كراسيهم المتحرّكة إلى حديقة بيت ديمة، وأن نروي لهم بعض القصص الجميلة التي حفظناها؛ لأنّنا نعرف كيف يفكّرون، وكيف يشعرون، وكيف يتألّمون.

أنا مثلهم أعاني من مرض (متلازمة داون)، وأعرف كيف يكون شعور أمثالي من البشر، من الصّعب أن أجد الكلمات الملائمة لأصف بها شعوري، قد أستطيع أن أفعل ذلك في يوم ما إن أخذتُ المزيد من حصص الكتابة والتّعبير، وحتى تلك اللّحظة أستطيع أن أقول إنّني وأصدقائي جميعًا من المرضى بهذا المرض نعيش بقلوب طيّبة صغيرة لا تكبر أبدًا، نحن نحبّ الحياة والبشر، نريد أن نلهو، وأن نتحرك، وأن نلعب، وأن نتعلم بحريّة، لا نريد أن يؤلمنا أحد، أو أن يحجر شخص ما على حرّياتنا.

لسنا شرّيرين، ولا نكره النّاس، على الرّغم من أنّنا نعاني من كثير من الأمراض الملازمة لنا دون أن نحتجّ على ذلك، ولكنّنا نريد تعاطفًا ومحبّة وعونًا من كلّ مَن حولنا، نريد أن نعيش بسلام، وأن نُنادَى بأسمائنا، وألا ينعتنا أحد بالحمقى أو المغفلين أو المجانين أو الملعونين. نحن بشر، ولكنّنا في حاجة إلى عناية خاصّة واهتمام مضاعف.

يبدو أنّني بدأتُ أتحسّن في إتقان الحديث، وهذا أمر يسعد أمّي وأبي، تمامًا كما أسعدهما أن يعرفا عن موهبتي الخاصّة بقراءة أفكار البشر، وقد قرأتُ في أعماق أبي يوم أخبرته وأمّي بحقيقة موهبتي الاستثنائيّة: صغيرتي الجميلة ديمة، اشكري الله الكريم الذي مَنَّ عليكِ بهبة نادرة الوجود. دائماً سوف تقرئين أعماق البشر، وتعرفين نواياهم تجاهكِ، فلا تنخدعي بهم أبدًا، هذه الموهبة هي حماية ربّانيّة لكِ من الشّرور كلّها. اللّهم لكَ الحمدُ حتى ترضى، ولكَ الحمد إن رضيتَ.

لقد بدأت أتعلّم الكثير من الأمور، ولا أزال أرغب في تعلّم المزيد منها، فأجمل أوقاتي هي أوقات الدّروس في بيتي الجميل حيث الأصدقاء والمحبّة والرّحمة والمعلّمات المخلصات وأمّي الحنونة وقلب أبي الرّاعي لنا جميعًا. أنا أكره العُطَل؛ لأنّها تبعدني عن الدّروس ورفقة الأصدقاء، والأصدقاء جميعًا يكرهونها للسّبب ذاته، ويتمنّون لو أنّ الدّراسة تكون في كلّ يوم دون عُطَل أو إجازات؛ لنتعلّم دون توقّف، ويسعد أحدنا برفقة أصدقائه في مدرسة بيت ديمة.

الآن بدأتُ أحدّد حلمي، وأعمل لأجله، أريد أن أكون أمًّا صالحة لطفل جميل أنجبه في المستقبل عندما أتزوّج. أبي يقول في صمته: من الصّعب أن تحظي يا ديمة بفرصة الزّواج والإنجاب؛ لأنّك تعانين من مرض (متلازمة داون).

ولكنّني مصّممة على أن أحقّق هذا الحلم؛ فأنا أحبّ صديقي عونًا، وسأتزوّجه عندما نكبر، وقد ننجب طفلاً غير مريض بالمرض الذي نعاني منه، فنرعاه، ويرعانا بدوره عندما يكبر.

لقد بدأتُ أدرك كثيرًا من الأمور في الحياة، لكنّني لم أستطع حتى الآن أن أعرف لماذا يكره البشر إخوانهم من ذوي الإعاقات؟ لا بدّ أنّهم أشرار ليكرهونا بدل أن يساعدونا. لعلّهم في حاجة إلى دروس في المحبّة والعون، فقد تعلّمنا الكثير في دروس المحبّة في بيت ديمة، كما تعلّمتُ أنّ عيني تريان أهم شيء في الحياة، وهو الحبّ.

مسابقة التَّكيُّف والسَّعادة والابتكار والإنجاز

كي نستطيع أن نتقدّم لمسابقة التّكيّف والسّعادة والابتكار والإنجاز التي تعقدها إدارة بيت ديمة بإشراف مباشر من أمّي عفاف، فقد أخذنا المزيد من الدّروس حول التّكيّف مع إعاقاتنا وتعزيز قدراتنا على الابتكار، لقد وزّعتنا المعلّمة نعيمة على مجموعات وفق أنواع إعاقاتنا، ثم انخرطنا بعد ذلك في دروس نظريّة وعمليّة حول فنون التّكيّف والسّعادة والابتكار والإنجاز؛ فتعلّمنا كيف نتحرّك، وكيف نتكلّم، وكيف نستفيد من الإشارات والإيماءات، وكيف نحافظ على أنفسنا من المخاطر المحيطة بنا، وكيف نستمتع بحياتنا وفق ظروفنا وقدرتنا، وكيف نحاول ابتكار الحلول لمشاكلنا الجسديّة والعقليّة والحياتيّة.

لقد خرجنا في دروس إلى الأسواق، واشترينا الكثير من احتياجاتنا، وزرنا بعض المعالم والمتاحف في مدينتنا، وذهبنا في رحلة ترفيهيّة إلى البحر، واخترعنا بعض الألعاب التي توافق أحوالنا، وتبادلنا الزّيارات في البيوت، وتحدّثنا عن تجارب إعاقاتنا، وحضرنا الكثير من المحاضرات حول التّكيّف والسّعادة والابتكار والإنجاز، وقمنا بممارسة أشياء نحبّها، وعقدنا نقاشات طويلة في حلقات تعليميّة حول ما ابتكرناه من حلول لمشاكلنا.

أنا على سبيل المثال تعلّمتُ كيف أمشّط شعري وحدي، وكيف أقوم بطلاء أظافري باللّون الورديّ دون مساعدة من أحد، كما تعلّمت كيف أغسل ملابسي، وأجفّفها، ثم أطويها، وأرتّبها في خزانة ملابسي.

أمّا عون، فقد تعلّم كيف يقود درّاجته الهوائيّة دون أن يقع من على متنها، أو أن يصدمها بالجدران، وكان يُعِينُ نورين وجود وبدرًا على ركوب دراجاتهم على الرّغم من عدم قدرتهم على الرّؤية.

لقد أصبحنا نمارس الحياة بحريّة وفرح، ونرفض أيّ شخص يحتقرنا، ونرفض أن نُستبعد من أيّ عمل أو فعاليّة؛ لأنّنا من ذوي الإعاقات.

وقد شاركنا جميعًا في مسابقة التّكيّف والسّعادة والابتكار والإنجاز، وحصلنا على نقاط رصدتها المعلّمات لنا طَوال مدّة المسابقة التي دامت شهرًا كاملًا، وخضنا الاختبارات العمليّة التي اشتملت المسابقة عليها، وطبعًا لم أستغلّ موهبتي في هذه المسابقة؛ فقد كانت مسابقة عمليّة بالدّرجة الأولى، وموهبتي تنحصر في قراءة الأفكار، ولكنّني كنتُ أعرف أنّني لن أفوز بالجائزة الأولى فيها، ولكن كان يسعدني أن أفوز بإحدى جوائزها.

لقد اجتهدنا جميعًا للفوز في هذه المسابقة المشوِّقة، وقد استطاعتْ هند أن تتوقّف عن نوبات غضبها وبكائها بسبب هذه المسابقة، كذلك قام الأصدقاء المكفوفون بتنظيف حديقة بيت ديمة، كما قاموا بزراعة أشتال الفراولة في الحديقة الخلفيّة له، أمّا أنا وأصدقائي من مرضى (متلازمة داون) فقد صنعنا قوارير فَخّارية، وبعناها في السّوق بمساعدة معلماتنا، واشترينا بثمنها الكثير من القصص الملوَّنة والأقلام والدّفاتر والسّكاكر والكتب المكتوبة بلغة (بريل)؛ ليقرأ أصدقاؤنا المكفوفون

فيها بعد أن شرعوا يتعلّمون القراءة والكتابة بطريقة (بريل) على يدي معلّم متخصّص انضمّ إلينا عبر الفجوة النّورانيّة.

أمّا الأصدقاء الصّمّ البكم، فقد اشتغلوا في تطريز الملابس التّقليديّة، وعرضوها في السّوق الشّعبيّ للمدينة، وبثمن بيعها استطاعوا أن يشتروا جهاز حاسوب جديدًا يتواصلون عبره مع أصدقائهم الصّم البكم في العالم كلّه، ويحضرون به تسجيلات فيديويّة مصوّرة لحفلات الرّقص الشّعبيّ في المهرجانات الدّوليّة.

أمّا أصدقاؤنا من ذوي الإعاقات العقليّة في مستوياتها الثّلاثة المتقدّمة والمتوسّطة والمتأخّرة، فقد دخلوا في دورات لضبط الحركة والمشي والنّطق، واستطاعوا بالتّعاون فيما بينهم أن ينظِّموا جداول تعاون ليعين أقلُّهم إعاقة أكثرَهم إعاقة على التّدرب على النّطق وتحريك اليدين، واستطاع معظمهم في آخر الأمر أن يلبس ملابسه وحده، وأن يأكل بيديه، وأن يعبِّر عن بعض حاجاته، وأحدهم استطاع أن يغنّي أغنية قصيرة ألّفها بنفسه.

أمّا الأصدقاء من ذوي الإعاقات الجسديّة المختلفة، فقد قاموا بأعمال شتّى وفق قدراتهم الجسديّة، وقد أبدعوا فيما أنجزوا، ولكن مريم كانت الأكثر إبداعًا فيهم؛ فهي على الرّغم من شلل يديها وقدميها وعجزها عن الحركة فإنّها تمتلك قدرات عقليّة كبيرة، وهي أكبرنا سنًّا، وأكثرنا نضجًا وتجربة، ولذلك استطاعتْ أن تكتب قصة قصيرة عن إصرارها على الحياة على الرّغم من إعاقتها الشّديدة، وفازتْ بها في مسابقة على مستوى المنظَّمة العالميّة لذوي الإعاقات.

لقد استطاعتْ أن تحرز المركز الثّالث في هذه المسابقة العالميّة، وهذا إنجاز عظيم احتفلنا به في مدرّجات جامعة مدينتنا، إذ وافقتْ رئاسة الجامعة بمبادرة من الدّكتور شجاع الورديّ على أن تستضيف حفلنا في قاعتها الكبرى لتكريم مريم على فوزها بجائزة القصّة، وتكريم الفائزين منّا بجوائز التّكيّف والسّعادة والابتكار والإنجاز.

لقد حضر الكثير من أهل المدينة هذا الاحتفال المهيب، وألقى رئيس الجامعة كلمة ترحيبيّة بنا لم نفهم معظم ما جاء فيها، ولكنّنا عرفنا أنّه فخور بنا، وأنّه سعيد بوجودنا، أمّا كلمة أبي فقد كانت واضحة لنا جميعًا؛ فقد استخدم فيها كلمات مفهومة وسهلة وقليلة العدد.

وبعد انتهائه من كلمته قام بتكريم مريم على فوزها بجائزة مسابقة القصّة على مستوى المنظّمة العالميّة لذوي الإعاقات، كما أعلن عن فوز صديقنا رامز بجائزة بيت ديمة في التّكيّف والسّعادة والابتكار والإنجاز؛ لأنّه استطاع أن يطوّر آلة إلكترونيّة دقيقة تستطيع أن تصلح أيّ عطب في آلة السّاعة مهما كان نوع العطب الذي أصابها، على الرّغم من أنّه لم يستطيع أن يتوقّف عن نوبات غضبه المعتادة، ولم يستطع أن يتوقّف عن لفظ لازمته اللُّغويّة: تك تك تك.

لقد فرحنا لفوز رامز بجائزة المسابقة، كما شعرنا بالفخر الكبير لفوزنا جميعًا بشهادات تقديريّة بعد أن بذلنا جهودًا حقيقيّة في التّكيّف مع إعاقاتنا وابتكار الحلول لمشاكلنا ومحاولة ابتكار طرائق جديدة

للسّعادة في حياتنا؛ ولذلك فقد أهدانا والدي هدايا وسكاكر وحلوى وعصائر لذيذة، وقدّم لنا شهادات فوز مرهونة بأسمائنا بخطٍّ ذهبيٍّ واضح برّاق، ثم دعانا جميعًا على العشاء على أنغام موسيقيّة هادئة رائقة في أحد المطاعم الشّعبيّة الجميلة في المدينة القديمة.

مجلّة بيت ديمة

لقد أصدرنا مجلّة شهريّة بعنوان (مجلّة بيت ديمة)، كانت فكرة إصدارها من بنات أفكار مريم، وقد لاقت الفكرة إعجابًا كبيرًا من أمّي وأبي والمعلّمة نعيمة ومن معلّمات البيت، ثم قام أبي بمساعدة فرح ومايكل والعمّة نجيبة بعرض الفكرة على كثير من المؤسّسات الحكوميّة والخاصّة في أكثر من بلد في العالم، وحصل أخيرًا على بعض الدّعم منهم بعد انتشار أخبار منجزات بيت ديمة في تعليم الأطفال المعاقين وتأهيلهم للدّراسة والحياة والعمل، وقامت الكثير من الجامعات والمؤسّسات الثّقافيّة بالاشتراك الدّائم في هذه المجلّة عبر شراء بعض النّسخ منها بشكل دوريٍّ منتظم دعماً لها، وقد استُثمِرت قيمة هذه الاشتراكات في شراء الكتب والقرطاسيّة والمواد لأطفال البيت، أمّا أجور الطّباعة والإصدار والتّوزيع، فقد قدّمتها جهات مختلفة وأفراد متخصّصون دعماً لهذا المشروع على سبيل التّبرّع له.

المجلّة تُكتب بأقلام أطفال بيت ديمة وأقلام المعلّمات والمعلّمين العاملين فيها، وتستقبل مشاركات الأطفال من ذوي الإعاقات من

شتّى أنحاء العالم عبر شبكات التّواصل الإلكترونيّة، والعنزة شقراء هي مَنْ تتولّى مهمّة ترجمة هذه المقالات إلى العربيّة.

ونظّمت المجلّة مسابقة دوريّة للكتابة عن قصص الطّموح والتّحدّي والنّجاح عند ذوي الإعاقات، ثم خصّصتْ موقعًا إلكترونيًّا تابعًا لها ليتيح لها التّواصل الدّائم مع العالم كلّه، وييسّر للمهتمّين الاطّلاع على الأعداد السّابقة من المجلّة، وقام أخي الطّبيب سيف بتصميم هذا الموقع، وأرسل رابطه الإلكترونيّ إلى آلاف الجهات المهتمّة في شتّى أنحاء العالم كي تتواصل معنا عبره.

لقد كتبتُ مقالة صغيرة بعنوان (حقوقي)، لقد ساعدتني أمّي في كتابتها بعد أن اقترح أبي العنوان عليّ، وشرح لي مضمون هذه الفكرة، كذلك ساعدتني مريم في صياغة الكثير من جملها، ولكنّني كتبتُ فيها بضع جمل دون أيّ مساعدة من أحد، وهي: «إنّ حقوقنا مكفولة رسميًّا من قبل الأمم المتحدة في اتّفاقيتها التي أعلنتها في عام 2006، إذ وَقّعت عليها 81 دولة في العالم بعد فتح باب التّوقيع عليها في شهر مارس 2007، وقد كفلت المعاهدة سائر الحقوق لذوي الإعاقات».

لقد فرح أبي لأنّني أصبحتُ على معرفة بهذه الاتّفاقيّة، وعرفتُ حقوقي في الحياة كما عرفها أطفال بيت ديمة جميعًا، بعد أن كانوا يجهلون حقوقهم.

لم يكن لي دور بارز في هذه المجلّة، ولكنّني كنتُ أستمتع بقراءة أعدادها؛ إذ كانت مكتوبة بلغة سهلة واضحة، وتعجّ بالصّور الجميلة،

وكانتْ فرصة حقيقيّة لي كي أتعرّف على الكثير من الأصدقاء حول العالم، لا سيما من المصابين بـ(متلازمة داون)، وقد أخذتُ أتواصل مع الكثير منهم عبر بريدي الإلكترونيّ، إذ أصبحتُ أجيد الكتابة والقراءة إلى حدّ مقبول، وكانت أمّي عفاف تدقّق رسائلي قبل أن أرسلها لتتأكّد من سلامة لغتها وإملائها وأفكارها.

وعبر هذا التّواصل عرفتُ الكثير عن حياة أولئك الأصدقاء في كلّ مكان، واستفدتُ الكثير من خبراتهم، وتأكّدتُ من معلومة أخي الطّبيب سيف التي تقول إنّ هناك بعض الحالات المسجّلة رسميًّا لحالات زواج بين المصابين بـ(متلازمة داون)، وهي زيجات ناجحة، وتمخّض عنها إنجاب أطفال طبيعيين لا يعانون من أيّ أمراض دائمة أو إعاقات ملازمة، فتأكّد لي أنّه من الممكن أن أصبح أمًّا عندما أكبر، ومن الممكن أن أتزوّج عونًا الذي أحبّه كثيرًا، فزاد اهتمامي بلباسي وأناقتي، وطلبتُ من أمّي أن تشتري لي نبتة مزهرة ذات رائحة طيّبة؛ لأنّ عونًا يحبّ الرّوائح الزّكيّة، وكثيرًا ما يهديني بعض الزّهور التي يقطفها لي من حديقة بيته، كما أنّه يحبّ درس الزّراعة، ويجتهد في العمل كي يزرع المزيد من الزّهور الملوّنة في حديقة بيت ديمة، وهو يعتني بالزّهور الموجودة في أصص الزّهور على شرفة مكتب أبي في بيت ديمة.

أمّا المعلومة الأهمّ التي عرفتها من متابعة أعداد مجلّة بيت ديمة، فقد كانت اكتشافي أنّ هناك أكثر من 610 ملايين أصحاب إعاقة في

العالم وفق إحصاءات عام 2000، وهناك 400 مليون نسمة منهم يعيشون في الدّول النّامية، وهذا يعني أنّ 15٪ من نسبة السّكان في كلّ دولة من دول العالم هي من ذوي الإعاقات.

هذا الاكتشاف جعلني أدرك أنّني لستُ الوحيدة المختلفة في هذا العالم، بل هناك الملايين ممّن هم أمثالي من المختلفين، ولذلك عليّ ألّا أحزن، أو أخجل من نفسي، بل عليّ أن أفتخر بنفسي، وأن أعمل باجتهاد كي أحصل على حقوقي وافرة في هذه الحياة، وأمارس إنسانيتي بشكل كامل دون انتقاص.

لقد أصبحتُ إنسانة أكثر؛ لأنّني عرفتُ أنّ لي حقوقًا كثيرة، وأصبحتُ أحاول أن أشارك في كلّ عدد من أعداد المجلّة بكتابة خاطرة صغيرة عن حقوقي وحقوق سائر ذوي الإعاقات في الحياة.

معلمتي نعيمة كانت تساعدني في تصويب الأخطاء الإملائيّة واللُّغويّة والسّياقيّة التي كانت ترد في كتاباتي، وقد كانتْ كثيرة في غالب الأحيان.

هذه الخاطرة التي أكتبها بشكل شهريّ كانت سببًا في حصولي على المزيد من الأصدقاء الذين جعلوني أسعد بهم، وشجّعوني على تحقيق حلمي بأن أكون زوجة وأمًّا عندما أكبر، وعون أخذ يحلم معي بأن يصبح زوجًا لي وأبًا لطفلنا، ولذلك أخذ يتعلّم الزّراعة بشكل حرفيّ كي يصبح مزارعًا عندما نكبر، ويعمل في أرض والده، وينفق على أسرتنا المستقبليّة التي نحلم بتكوينها معًا مع طفلنا الذي سننجبه.

الحقُّ والفرح

لقد تعلّمنا الكثير من حقوقنا وواجباتنا في دروس المواطنة والوطن والإنسان التي كنّا نأخذها في بيت ديمة، وبدأنا نبحث عن مرافقنا الخاصّة في كلّ مكان نذهب إليه، ونقدّم كتاب شكوى باسم مؤسّستنا لكلّ مكان نزوره، فلا نجد فيه مرافق ومداخل وخدمات خاصّة بذوي الإعاقات؛ فمن حقّنا أن نحصل على أماكن مجهّزة بما يمكن أن يساعدنا على زيارتها.

أصبحتُ أبحث عن إشارة ذوي الإعاقات في كلّ مكان أذهب إليه، وكلّما وجدتها شعرتُ بالفرح والألفة والسّعادة.

وقد شاركنا جميعًا في التّمثيل في مسرحيّة بعنوان (من حقّي أن أفرح)، لقد كانت المسرحية عن حقوقنا وأحلامنا، لقد قمنا بكتابة نصّها ضمن مشروع جماعيٍّ بمساعدة المعلّمة نعيمة، ثم تدرّبنا طويلًا على أداء أدوارنا فيها، وقمنا بعرضها على مسرح المدينة، وقد حضر عرضها الأوّل عدد كبير من المهتمين والإعلاميين والتّربويين، كذلك خصّصنا فيها مقاعد أماميّة خاصّة لذوي الإعاقات مع مداخل مناسبة لهم.

تكوّنت المسرحيّة من ثلاثة فصول، وقامت سوزانا التي جاءت من فلسطين المحتلّة، وانضمّت حديثًا إلى أسرة بيت ديمة بالغناء في هذه المسرحيّة، لقد غنّت أغنية بعنوان (أعطونا الطّفولة)، هي أغنية مشهورة غنّتها طفلة لبنانيّة اسمها ريمي بندلي في عام 1984، وقامت بغنائها في كثير من دول العالم بوجهها البريء الذي مثّل الإنسان

اللّبنانيّ المظلوم في خضمّ الحروب الأهليّة اللبنانيّة الطّاحنة في الثّمانينيّات من القرن الماضي.

لقد جاءت سوزانا إلى بيت ديمة منذ فترة وجيزة؛ أحضرها أبي معه في إحدى رحلاته عبر الفجوة النّورانيّة، لقد أصيبتْ بالشّلل في قدميها بعد أن أطلق العدوّ الصّهيونيّ الرّصاص عليها وهي عائدة من المدرسة، لقد نجتْ من الموت بأعجوبة، ولكنّها لم تعد قادرة على السّير، وإن بقيتْ قادرة على الغناء الشّجيّ الحزين.

لقد تعلّمت سوزانا هذه الأغنية عندما كانت أصغر سنًّا، حفظتها من أمّها القبرصيّة التي تزوّجت والدها الذي كان منفيًّا فترة من حياته في قبرص قبل أن يعود إلى فلسطين، ويُستشهد على ترابها.

قابلتْ سوزانا -التي تحمل اسم جدّتها لأمّها القبرصيّة- جمهور المسرحيّة، وهي أسيرة في مقعدها المتحرّك، كانت تلبس ثوبًا أخضر؛ فأمّها تحبّ اللّون الأخضر الذي يشبه لون عيني زوجها الذي تحبّه، كما يشبه خضرة جبال فلسطين العامرة بشجر الزّيتون المبارك، وشرعتْ تغنّي:

جئنا نعيدكم

في العيد نسألكم

لماذا ليس عندنا أعياد؟!

يا عالم، أرضي محروقة

أرضي حريّة مسروقة

سماؤنا تحلم

وتسأل الأيّام:

أين الشّمس الحلوة؟

أين رفوف الحمام؟

يا عالم، أرضي محروقة

أرضي حريّة مسروقة

أرضي صغيرة

مثلي صغيرة

ردّوا لنا السّلام

وأعطونا الطّفولة

صفّق الجمّهور طويلاً لغناء سوزانا، وصعد أطفال بيت ديمة جميعهم إلى خشبة المسرح، وغنّوا طويلاً حالمين بالسّلام والطّفولة، وهم يلبسون ملابسهم الزّاهية الجميلة الأنيقة، وشعورهم مُسرَّحة لامعة، ثمّ ردّدوا بحماس كلام بدر الذي قاله بكلّ ثقة وثبات:

– لسنا حمقى أو مجانين أو وحوشًا أو ملعونين. نحن بشر مختلفون.

– دون الحبّ الجميع يصبحون معاقين.

– ذوو الإعاقات ليسوا مجرمين ليُعاقبوا.

– نشكر الله على أنّه وهبنا الحياة، ووهبنا القدرة على الصّبر على ابتلائنا بالمرض.

– الإعاقة في القلب والرّوح والضّمير أسوأ من الإعاقة في الجسد.

– من حقّنا أن نعيش في سعادة وكرامة.

– نريد حبًّا لا شفقة.

– نريد عملًا لا صدقة.

– من حقّنا أن نتعلّم، وأن نعمل.

– من حقّنا أن نحبّ، وأن نحلم.

– لا تخجلوا منّا، نحن فخورون بأنفسنا.

– نستطيع أن نسير معكم في درب الحياة.

– لا نريد وصاية، نريد حماية ومساعدة.

– نريد تأهيلًا لا وصاية.

– نحن نحبّكم.

– أحبّونا.

عيد ميلاد سوزانا

لم تكن سوزانا سعيدة بحقٍّ كما تشي ابتسامتها الباهتة، وكانتْ دائمة الصّمت والحزن على الرّغم من إلحاحنا على الحديث معها. استغلّ أبي فرصة عيد ميلادها كي نقيم لها حفلة تفرح قلبها، ولكنّها لم تفرح

بالحفل الذي شارك الجميع به على الرّغم من جهودنا لإسعادها، وعندما سألناها عن أمنيتها في عيد ميلادها، ردّت بأنّها تريد أن ترى أباها الذي استُشهِد منذ عدّة سنوات على تراب فلسطين.

كانت أمنيتها صعبة التّحقيق، ولكنّ أبي قرّر أن يحقّق أمنيتها مهما كلّفه الأمر، لقد قرأتُ ذلك في نفسه، وهو صامت يفكّر بعمق، وفرحتُ لأنّ أبي دائم التّفكير في إسعاد مَن حوله من بشر.

بعد يومين أعلن أبي في اجتماع داخليٍّ مع أطفال بيت ديمة أنّه سيأخذنا في رحلة خاصّة عبر الفجوة النّورانيّة، وقرّرَت المعلّمة نعيمة أن ترافقنا في هذه الرّحلة، في حين قَدَّمت باقي المعلّمات اعتذارهنّ عن الذّهاب إلى الرّحلة؛ لأنّهن يخشين من القفز بين الأزمان، وعندهنّ أعمال يقمن بها في بيت ديمة أثناء غيابنا في الرّحلة الزّمنيّة.

وفي اليوم التّالي المحدّد للسّفر دخلنا جميعًا برفقة أبي إلى الغرفة السّريّة في بيت ديمة، وانزلقنا عبر الفجوة النّورانيّة حتى وجدنا أنفسنا في زنزانة مظلمة ضيّقة.

هذه الزّنزانة الصّغيرة كانت مكانًا ضيّقًا علينا، ولا يمكن أن تتسع لنا جميعًا، وعددنا يتجاوز سبعين شخصًا، ولذلك قام أبي عبر تقنيّة تركيب الأماكن بتوسيع المكان وإضاءته عبر الجهاز التّذبذبيّ الذي يملكه، وهو جهاز قادر على تغيير المساحات والحجوم في حالة العودة إلى الزّمن الماضي عبر الفجوة النّورانيّة، فتوسّعت الزّنزانة عندها حتى أصبحتْ قاعة رحبة، وتَحوَّل ظلامها إلى نور، ثم قام أبي بتعطيل

رادارات ولواقط جنود الجيش الصّهيونيّ الموجودين في المكان عبر جهاز تشويش يحمله في جيبه، وقال لنا: الآن نحن في أمان، هذه التّقنيّة الإلكترونيّة في التّشويش سوف تعمي عيون الجنود الصّهاينة عنّا، فلا يروننا أو يسمعوننا، فنحن الآن في معتقل (هداريم بشروط) الصّهيونيّ، ونحن الآن في زنزانة المجاهد الفلسطينيّ الكبير أحمد ياسين، والرّجل الذي إلى يمينه هو والد سوزانا.

شَعَر الأطفال بفرح غامر وهم يرون سوزانا ترتمي في حضن والدها، فيطبع على خدّها قُبَلَه الحرّى، ودموعه المشتاقة تنهمر بشدّة، بعد أن انفطر قلبه حزنًا عندما شاهدها تجلس على كرسيّ متحرّك بعد أن أصابها الشّلل بسبب إصابتها بطلقات رصاص العدوّ الصّهيونيّ.

لكن سوزانا كانت على الرّغم من مأساتها الشّخصيّة الأسعد بهذه اللّحظات الفريدة التي لا تتكرّر أبدًا؛ فقد عاد الزّمان بها وبنا جميعًا، واستطاعتْ أن تقابل والدها بعد أن استُشهِد في المعتقل الصّهيونيّ منذ أعوام طويلة.

لقد حَدَّثنا والدها طويلاً عن نضاله، ولكنّه حدّثنا أكثر عن رفيقه في الزّنزانة، قال لنا إنّه الشّيخ المجاهد أحمد ياسين زعيم المقاومة الإسلاميّة في فلسطين، وأخبرنا أنّه مصاب بالشّلل الكلّيّ منذ شبابه بسبب حادث رياضيٍّ وقع له، كما أنّه يعاني من فقدان البصر في إحدى عينيه، ومن ضعف الإبصار في عينه الأخرى، إلى جانب معاناته من التهاب مزمن في أذنه وحساسيّة في رئتيه وبعض الالتهابات المعويّة

الأخرى بسبب سوء ظروف اعتقاله في المعتقل المسجون فيه منذ سنوات طويلة لنضاله ضدّ العدوّ الصّهيونيّ الغاصب لوطنه فلسطين.

كان والد سوزانا يتحدّث عن النّضال والمناضلين والشّيخ أحمد ياسين الذي يجلس على كرسيه المتحرّك يسمع حديثه بابتسامة صافية تزين وجهه بنور عجيب.

أمّي همستْ في أذني، وقالتْ لي: هناك في الجنة قابلتُ والد سوزانا والشّيخ المناضل أحمد ياسين، إنّهما يعيشان في أعلى مراتب الجنّة حيث الشّهداء والصّديقون.

وعندما انتهى والد سوزانا من كلامه أمطرْنا الشّيخ أحمد ياسين بأسئلتنا الفضوليّة حول نضاله المستمرّ واحتماله الشّجاع للاعتقال الطّويل في زنزانات فرديّة على الرّغم من إعاقاته المتعدّدة وتقدّمه في السّن، عندها ابتسم لنا ابتسامة عريضة، وقال لنا: إنّ الاعتقال الطّويل عمّق في نفسي كراهية الظّلم، وأكّد لي أنّ شرعيّة أيّ سلطة تقوم على العدل والإيمان بحقّ الإنسان في الحياة.

ثم ذكر لنا بثقة وثبات بصوت جهوريّ مؤثِّر أنّه يؤمن بعمق بمقولة العالم حسن البنّا الذي يقول: سنقاتل النّاس بالحبّ.

لقد حدّثنا الشّيخ أحمد ياسين عن إصراره على الدّفاع عن وطنه على الرّغم من إعاقته وشيخوخته، فهو لم يرَ نفسه في يوم ضعيفًا أو مهزومًا أو ناقصًا، ولذلك لم يرَ الفلسطينيون إعاقته، بل رأوا عزمه وإصراره وقوته، وجعلوه زعيماً روحيًّا لثورتهم ضدّ الاحتلال الصّهيونيّ

الغاشم. وقال لنا إنّه مصرّ على الدّفاع عن وطنه حتى آخر لحظة من حياته، وطلب منّا أن نخبر أسرته إنْ مات في المعتقل أنّه يحبّهم، وأنّه كان دائماً في شوق كبير لهم.

مرّ الوقت سريعًا في رفقة الشّيخ أحمد ياسين الذي كان يسحرنا بإصراره وعلمه وإيمانه بالله وبعدالة قضيته الفلسطينيّة، ويحدّثنا عن حلمه الوحيد بالاستشهاد على ثرى وطنه. وكنّا كلّما سألناه عن إعاقته حثّنا على الإصرار على الانتصار على إعاقاتنا.

كان أبي مشغولًا بترجمة كلمات الشّيخ أحمد ياسين لأصدقائنا الصّم بلغة الإشارة التي يتقنها. وبحركة سريعة من يديه وحاجبيه عرفنا أنّه يأمرنا بمغادرة المكان، ألقينا تحيّة الوداع على الشّيخ أحمد ياسين وعلى والد سوزانا، في حين قال لنا أبي: ماذا تعلّمتم من هذه الزّيارة؟

– لقد تعلّمنا أنّ الإصرار أكبر من الإعاقة.

– وأنّ القضية العادلة هي الأساس في النّضال.

– وأنّ القضيّة الفلسطينيّة قضيّة عادلة.

– وأنّ الله يمدّ عباده المؤمنين بالعون والفرج.

– لقد تعلّمنا أن رجلاً شجاعًا يجلس على كرسي متحرّك مشلولًا شبه أعمى قد قهر دولة غاشمة مثل الكيان الصّهيونيّ في فلسطين.

– وتعلّمنا كذلك أنّ مَنْ يهزم إعاقته وضعفه يستطيع أن يهزم العالم كلّه.

ضحك الشّيخ أحمد ياسين ضحكة رضا، وهو يسمع كلامنا، وقال

لنا بمحبّة: عليكم أن تنضمّوا إلى المقاومة الفلسطينيّة؛ فهي في حاجة دائمة إلى أبطال صغار مثلكم.

– أبي بفخر: قد يفعلون ذلك في يوم ما.

أمّا أنا فأخذتُ أقرأ في داخل أبي ما يعرف عن مستقبل نضال الشّيخ أحمد ياسين، وحزنت لأنّه سيُستشهد في فجر يوم 22/ 4/ 2004، وهو خارج من مسجد حيِّه بعد أن أدّى الصّلاة فيه، وذلك بقصف صاروخيٍّ من العدوّ الصّهيونيّ، فيتناثر جسده أشلاء متطايرة، ويظلّ كرسيه المتحرّك الشّاهد على اغتياله بهذه البشاعة.

ورأيتُ مئات الألوف من البشر في أنحاء العالم جميعها يخرجون في مظاهرات احتجاجيّة على اغتياله بهذه الطّريقة الوحشيّة، ويُصلّون صلاة الغائب على روحه الطّاهرة.

ولكنّني على الرّغم من ذلك شعرتُ بسعادة كبيرة؛ لأنّ هذا الرّجل المشلول قد استطاع أن يحقّق أحلامه كلّها، حتى حلم الاستشهاد في سبيل وطنه وربّه قد ظفر به، ليصبح أسطورة الجهاد التي انتصرتْ على الإعاقة والظّلم والجبروت. لا بدّ أنّ ابتسامته العريضة هي انتصاره الدّائم على ضعفه وألمه، وهذه الابتسامة ظلّت مرسومة على محيّاه حتى في لحظة استشهاده ودفنه.

بصعوبة أقنعنا سوزانا بأن تغادر حضن والدها بعد أن تعلّقت برقبته رافضة أن تفارقه، وهي تعرف أنّها لن تراه بعد الآن؛ فهو أيضًا سوف يُستشهَد في المستقبل القريب، ويتركها وحيدة، وما كاد والدي

يمسك بيدها بحنان حتى سألَنا جميعًا بصوت مرتفع: كيف ستجابهون إعاقاتكم ومن يسخر منكم؟

– الجميع بصوت واحد يسكنه الحماس والثّقة: بالحبّ والإصرار والعمل والإيمان والخير سنقاتل الشّر كلّه.

– أحسنتم.

– الشّيخ أحمد ياسين بإعجاب كبير بنا: يبدو أنّهم قد عرفوا طريقهم نحو النّصر والسّعادة.

– أبي بفرح: نعم، هم عرفوا طريقهم هذا منذ زمن طويل عندما بدأوا بالتّعلّم في بيت ديمة.

بعد انتهاء زيارتنا هذه عدنا جميعًا إلى بيت ديمة عبر طريقنا السّريّ المعتاد بواسطة الفجوة النّورانيّة.

الفصل الخامس

السَّلف الصَّالح

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

(1) الفتح: 17.

بدر الحزين

اسمي بدر، أنا مصاب بالعمى منذ ولادتي، لا أعرف معنى الإبصار والرّؤية، ولذلك قد تعوّدت على أن أرى عبر أذني، وأن أسمع البشر يتحدّثون عن الأشياء والأماكن، فأتخيّلها جميعًا وفق وصفهم لها، أحيانًا أنجح في التّخيل، وكثيرًا ما أفشل في ذلك، وأظلّ أتساءل كيف تبدو وجوه البشر عندما يبتسمون؟ وكيف تبدو الألوان؟ وما ملامح وجوه النّاس الذين أحبّهم؟ وما شكل البحر والأفق والطّيور والفراشات والنّجوم وقوس قزح؟ وكيف تكون نظرة المحبة والصّداقة؟ وكيف تبتسم عينَا جارتي سماح عندما تضحك وأنا أحدّثها بطرائف القصص التي تعلّمتها في بيت ديمة؟

قلبي يعلم فقط كيف يرقص فرحًا عندما يسمع صوتها، أو يشمّ رائحة أريجها الطّبيعيّ.

كنتُ دائماً أتخيّل أنّني لو قرّرتُ أن أرسم وجه سماح، فسوف تحدث معجزة ما، فأرسمه كما هو في الحقيقة، فلا بدّ أنّ لها عينين دافئتين،

وشعرًا هائجًا مثل البحر، وقسمات متّسقة مثل قسمات الأميرات في الحكايات التي ترويها الجدّة مليحة لنا؛ فصوتها الجميل وقلبها الحنون لا بدّ أنّهما يملكان أجمل الملامح.

هي تكبرني بعدّة سنوات، ولكنّني كنتُ دائم اللّعب معها منذ عَرَفتُ معنى اللّعب، كنتُ أرى الحياة بعينيها، كانت تحدّثني عن كلّ شيء تراه، ولا تملّ من وصف الأشياء والأماكن والأشخاص لي، حتى إنّني حفظتُ الحياة والتّفاصيل عبر كلماتها، لقد كانتْ سماح عينَي اللّتين تريان الأشياء.

كنتُ أعتقد أنّها ستظلّ صديقتي الملازمة لي حتى آخر لحظة في حياتي، وما ظننتُ يومًا أنّ عائلتها سوف ترحل إلى بلد آخر طلبًا للرّزق، وستأخذها بعيدًا عنّي للأبد، لقد سافرتْ دون وداع؛ لأنّها لم تملك القوّة والجرأة والكلمات لوداعي، لقد تحطّم قلبي الصّغير عندما سافرتْ صديقتي الحميمة التي أرى العالم بعينيها، وتركتني وحدي في الظّلام لا أرى دربها، ولا أشمّ أريجها، ولا أسمع ضحكاتها تقرقر في المكان، فتملأ قلبي نورًا وأملاً وفرحًا.

الآن قد غادرتْ سماح إلى الأبد، وتركتْ قلبي في ظلمته، من الصّعب أن يتخيّل بشر أحزان طفل كفيف بدأ الظّلام والحزن والانكسار يدبّ في قلبه الحزين.

طفل مثلي هو محبوس في الظّلام، والبشر أجمعون يعيشون في النّور، فكيف يمكن أن يشعروا بحزني وألمي ووحدتي، هذا شعور مستحيل،

تمامًا كما يستحيل أن أتخيّل الألوان، أو أن أرسم قسمات الوجوه التي أسمع أصوات أصحابها.

لا أريد البقاء في هذا العالم بعد رحيل سماح عنه، سأهرب إلى عالم آخر حيث يمكنني أن أنسى أحزاني، سوف أهرب إلى عالم الإمام التِّرْمِذِيّ الذي عرفنا الكثير عن حياته وصبره في مكابدته عماه في دروس الأعلام في بيت ديمة.

هو بطلي المفضّل؛ فقد أصرّ على النّجاح وعلى تلقّي العلم حتى أصبح من أكبر علماء الأمّة، وغدًا من أشهر مَن نقل أحاديث النّبي محمد ﷺ، وبات المبصرون في كلّ مكان في الدّنيا يقصدونه ليأخذوا العلم عنه.

يجب أن أقابل الإمام التِّرْمِذِيّ؛ فأنا في حاجة إلى دعمه وصبره كي أنسى حزني بسبب رحيل سماح، سأسافر إليه عبر الفجوات النّورانيّة في الغرفة السّريّة في بيت ديمة، بيته موجود في مدينة تِرْمِذ في أوزبكستان، سألزمه طوال العمر، وآخذ العلم عنه، ولن أعود أبدًا إلى بيتي بعد الآن؛ فلا قيمة لشيء في الحياة في غياب صديقتي الأثيرة سماح.

***

لقد قرأتُ هذا البوح في نفس بدر عندما رأيته قبل يومين، ثم اختفى بعد ذلك مباشرة، إلى أن عرفتُ أنّه قد ذهب عبر الفجوة النورانيّة إلى الإمام التِّرْمِذِيّ، وقد فعل ذلك بمساعدة أبي وبموافقته،

فقد سمح له بأن يذهب إلى التِّرْمِذِيّ علّه يتخلّص من بعض أحزانه إن عاش بعض الوقت في صحبته، وقد أوصله أبي إلى مدينة تِرْمِذ حيث بيت التِّرْمِذِيّ، فأقام في ضيافته، يتعلّم من علمه، ويجد السّلوى في قربه لعلّه ينسيه حزنه بسبب سفر سماح، فلطالما أحبّ هذا العالم الجليل الذي كان يحفظ الكثير من الأحاديث النّبويّة، ويشعر بقرب خاصّ منه؛ لأنّه كفيف مثله، ولأنّه يحبّ الشّعر كما يحبّه، ولأنّه نقل الكثير من الأحاديث النّبويّة حول الرِّفق بذوي الإعاقات.

بعد فترة من غياب بدر، أعلن أبي أنّ هناك رحلة اختياريّة عبر الأزمان لزيارة بدر، وإقناعه بالعودة إلى زمنهم، فأبدى الأصدقاء في بيت ديمة رغبتهم في مرافقتنا في هذه الرّحلة إلى زمن الإمام التّرمذيّ.

لكن قبل أن نسافر في رحلتنا ذهب أبي في رحلة عاجلة برفقة المعلّمة نعيمة إلى البلد الذي تسكن سماح وأسرتها فيه، وشرح لها ولأسرتها أمر ذهاب بدر إلى ترمذ، وأقنعها وأقنع أسرتها بمرافقة سماح لنا في رحلتنا لإقناع بدر بالعودة إلى بيت ديمة، فوافقتْ سماح على ذلك بعد أن أخذتْ موافقة والديها على سفرها معنا، بعد أن تعهّد والدي بإعادتها إلى منزلها بعد لقاء بدر.

عاد أبي من جديد إلى بيت ديمة، وفي الوقت المحدّد للرّحلة الجماعيّة نحو الماضي حيث زمان الإمام التّرمذيّ، قفز أبي في الفجوة، وهو يمسك بيد سماح خوفًا عليها من أن تخاف من هذه التّجربة الأولى لها في السّفر عبر الفجوة النّورانية، ثم قفزت أمّي عفاف، وهي تمسك

بيدي بتشبّث غريب، ثم قفز الجميع في الفجوة النّورانيّة من بعدنا، حتى هبطنا في باحة مسجد كبير في مدينة ترمذ، حيث الطّبيعة الجميلة، والطقس المنعش، والوجوه الباسمة.

كان المسجد يعجّ بالمصلّين الذين شرعوا يغادرونه بعد انتهاء صلاتهم فيه، في حين جلس آخرون متحلّقين حول رجل كبير وقور حلو الصّوت والملامح، وهو يلبس عمامة أنيقة، ويتحدّث عن فضائل الصّبر، وكان بدر يجلس على يمينه، ويسمع كلامه باهتمام.

– أبي سعيدًا: ذاك هو بدر.

– المعلّمة نعيمة: والشّيخ الوقور الذي يتحدّث الآن هو الإمام التّرمذيّ، وهو كفيف البصر، كما ذكرتُ لكم مسبقًا في درس الأعلام الخالدين.

– يبدو بدر حزينًا.

– بل يبدو مرتاحًا.

– سماح بفرح: هيا نقترب من بدر.

– الأصدقاء بحماس: هيّا بنا.

– استوقفتهم المعلّمة نعيمة قائلة: لا يجوز أن نقطع حلقة العلم، يجب أن ننضمّ إلى الحاضرين، ونجلس أرضًا نستمع إلى درس العلم إلى أن ينتهي، ثم نتحدّث مع بدر.

– أبي بحزم: هذا كلام صحيح.

استمعنا إلى درس الإمام التّرمذيّ حول فضائل الصّبر، ثم توجّهنا للحديث مع بدر بحضور الإمام التّرمذيّ الذي رحّب بنا، واستضافنا في بيته، وقدّم لنا التّمر والحليب والخبز الطّازج اللّذيذ وبعض الحلويّات الشّعبيّة المشهورة في أوزبكستان، ثم عرّفنا بسيرة حياته التي انتصر عبرها على فقدان بصره بالعلم والعمل والإيمان.

وقد روى لنا أنّ رسول الله محمدًا ﷺ، كان يرفق بذوي الإعاقات، ويأمر بالإحسان إليهم، ويعدهم بالجنّة والثّواب على صبرهم على ابتلائهم بأمراض أجسادهم، ويخفّف عنهم في الأحكام، ويحرّم الإساءة إليهم، أو الاستهزاء بهم، ويعطيهم حقوقهم الإنسانيّة كاملة، وقد علّم الصّحابة الكرام أن يحسنوا إليهم، وأن يرحموهم، وقد سار الصّحابة والخلفاء الرّاشدون والتابعون على دربه.

وكان من صحابته ومن التّابعين والعلماء وكرام العرب وعظماء الخلفاء والفاتحين الكثير من ذوي الإعاقات؛ فقد كان عبد الله بن أم مكتوم أعمى، وكان الجعد عمرو بن الجموح وعمرو بن أخطب أبو زيد الأنصاريّ وربعي بن عامر وأَبَان بن عثمان بن عفّان وعبدالرّحمن بن عوف –رضوان الله عليهم– يعانون جميعًا من العرج، كما عانى من العلّة ذاتها القائد الفاتح موسى بن نصير، والسّلطان الشّهير تيمورلنك.

وقد أسدى الإمام التّرمذيّ الكثير من النّصائح لبدر ولكلّ أصدقائنا كفيفي النّظر حول التّغلّب على عقبة العمى، وقد حدّثه

والـدي طويـلاً عـن القـراءة بطريقـة (بريـل)، كـما وضّـح لـه أنّ هـذه الطّريقـة بتعليـم القـراءة والكتابـة للمكفوفـين معتمـدة في بيـت ديمـة، وأهـداه كتابًـا مكتوبًـا بهـذه الطّريقـة، فأعجـب الإمـام التّرمـذيّ بهـذه الطّريقـة في الكتابـة والقـراءة، وعقـد العـزم عـلى أن يتعلّـم الكتابـة بهـا كـي يُصـدِر طبعـة جديـدة مـن كتابـه الشّـهير (سـنن التّرمـذيّ) بهـذه الطّريقـة؛ ليكـون متاحًـا لـكلّ كفيـف في العـالم، فينـال المزيـد مـن الأجـر عـلى ذلـك.

كنّـا فرحـين بالاسـتماع إلى هـذا الإمـام الشّـجاع الـذي رفـض أن يحرمـه العمـى مـن العلـم والمعرفـة، وزار الكثـير مـن البـلاد طلبًـا للمعرفـة، وجمـع عـددًا عملاقًـا مـن أحاديـث النّبـي عليـه الصّـلاة والسّـلام، وأصبـح مـن أهـم أئمـة الإسـلام والمسـلمين.

ولكـنْ بـدر كان أكثرنـا سـعادة بوجـود سـماح، وقـد وافـق عـلى العـودة معنـا إلى بيـت ديمـة بـشرط أن تـزوره سـماح في العطـل المدرسـيّة، وأن تلعب معـه، وأن تحكـي الحكايـات لـه.

وبعـد أن قمنـا برحلـة جميلـة في مدينـة ترمـذ برفقـة خـادم الإمـام ومرافقـه الدّائـم، عدنـا إلى بيـت الإمـام، حيـث سـألَنا بـدفء: هـل حفظتـم بعضًـا مـن الآيـات الشّـريفـة، أو الأحاديـث النّبويّـة التـي تكفـل حـقّ ذوي الإعاقـات؟

– مريم بفخر: أنا أحفظ الكثير منها.

– المعلّمـة نعيمـة: بعـض طلبة بيـت ديمة يجـدون صعوبة في الحفظ بسـبب إعاقاتهـم، ولكنّهـم جميعًا يعرفـون أنّ الإسـلام قد دافع عـن حقوقهم.

– هند: ونحن متمسّكون بحقوقنا.

– أمّي عفاف بحماس: ابنتي ديمة تحفظ بعض هذه الأحاديث الشّريفة.

– ديمـة بفخـر: وأحفـظ آيـة كريمـة تحـضّ عـلى الرّحمـة بـذوي الإعاقات والتّخفيـف عنهم.

– الإمـام التّرمـذيّ: بـارك الله فيكـم أيّهـا الأطفـال الشّـجعان. قولـوا لي مـاذا حفظتـم مـن الآيـات والأحاديـث النّبويّـة في هـذا الشّـأن؟

– عون بفخر: أنا أحفظ قول الله تعالى: ﴿ **لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[1].

– الإمام التّرمذيّ: صدق الله العظيم. أحسنتَ يا عون.

– سوزانا: ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ** ﴾[2].

(1) النور: 61.

(2) عبس: الآيات 1 - 5.

– سماح: وهذه الآية الكريمة نزلتْ عتابًا من الله لرسوله الكريم ﷺ؛ لأنّه تجاهل وجود رجل أعمى اسمه عبد الله بن أم مكتوم، واهتم برجل من الأشراف كان يدعوه إلى الإسلام، فأغضب هذا السّلوك الرّب العظيم في سمائه، وأنزل هذه الآيات الكريمة ليُعلِّم العالمين عبر تعليم نبيّه أنّه لا يجوز تجاهل ذوي الإعاقات؛ لأنّ ذلك يجرح مشاعرهم، ويقلّل من احترامهم، وهذا لا يجوز أبدًا، وقد ظلّ رسول الله الكريم ﷺ يستقبل عبد الله بن أم مكتوم بعد ذلك بكلّ حفاوة بالغة، ويقول له: «مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي».

– محمود: وقال رسول الله ﷺ على لسان ربّه العظيم: «**إذا سلبتُ من عبدي كريمتيه وهو بهما ضنين، لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة، إذا حمدني عليهما**».

– الإمام التّرمذيّ: ما أرحم الله بعباده!

– محمود: **وأَتَت النَّبِيَّ ﷺ امرأة تُصرع، فقالت: إنّي أُصْرَعُ، وإني أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي! فقال النّبي ﷺ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ». فقالت: أَصْبِرُ. ثم قالتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ! فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لا أَتَكَشَّف. فَدَعَا لَهَا ﷺ.**

– الإمام التّرمذيّ: وقد بلغ من رحمة النّبي الكريم عليه الصّلاة والسّلام أنّه قد عفا عن رجل منافق قد سبّه وآذاه؛ لأنّه كفيف لا يرى.

– محمود: وقد حرّم الله الاستهزاء بالآخرين، لا سيما من أصحاب الإعاقات، إذ قال في محكم تنزيله: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا**

مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

– أبي: وقد طرد الله من رحمته من يؤذي أحدًا من ذوي الإعاقات، إذ قال سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام: «**مَلْعُونٌ مَنْ كَمَهَ أَعْمَى عَنْ طَرِيقٍ**».

– جود: وكمه أعمى عن الطّريق تعني: أضلّه عن الطّريق.

– الإمام التّرمذيّ بسعادة: باركَ الله فيكم جميعًا. يا دكتور شجاع الورديّ! أُعْلِمُكَ بأنّني أتطوّع لتدريس الحديث النّبويّ الشّريف في بيت ديمة مرّة في الأسبوع خدّمة للإسلام والمسلمين.

– أبي: نرحّب بكَ بكلّ سرور وفخر.

– أمّي عفاف بسعادة: وسأقوم بتوجيه الدّعوات لأولياء أمور أطفال بيت ديمة ليحضروا هذه الدّروس طلبًا للأجر والخير والمنفعة.

– الإمام التّرمذيّ: يا أبنائي الأحبّاء، قد جعل الله الخير والبركة في كثير من ذوي الإعاقات؛ فجعل منهم العلماء والصّالحين والأتقياء، وقد كان سيدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام يعاني من ضعف وضيق عند محاولة النّطق، ولذلك طلب من الله تعالى أن يرسل أخاه هارون معه لمجادلة فرعون؛ لأنّه فصيح اللّسان، ولا مشكلة عنده في اللّفظ.

– المعلّمة نعيمة: أرأيتم يا أبنائي كم أن الله رحيم بكم؟

– ونحن نحبّ الله عزّ وجلّ.

(1) الحجرات: 11.

– الإمام التّرمذيّ: مَن أحبّ الله أحبّه.

وقد عرض أبي على الإمام التّرمذيّ أن يرافقنا في رحلة تاريخيّة لنرى واقع ذوي الإعاقات في الحضارة الإسلاميّة، فوافق الإمام التّرمذيّ على هذا العرض مسرورًا؛ فهو يحبّ السّفر في سبيل الإفادة والعلم، وقد اشترط علينا أن نعيده إلى مدينته قبل صلاة الجمعة كي لا تفوته الصّلاة في مسجد المدينة الكبير.

وقد عرض علينا أن يكون قائدنا في هذه الرّحلة؛ لأنّه يعرف تفاصيلها جيّدًا أكثر من أيّ شخص آخر، فوافق أبي على ذلك مسرورًا باقتراحه، شاكرًا له حسن تعاونه.

زرنا في البداية الصّحابيّ الجليل عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، فوجدناه أعمى جليلاً منقطعًا للعلم والعبادة وخدمة القرآن الكريم، وقد رحّب بنا بكلّ سعادة، وأخبرنا عن مسيرته في العلم التي لم تتوقّف بسبب عمى عينيه، وقال واصفًا حاله:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وسمعي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي عوج وفي فمي صارم كالسّيف مأثور

ورافقنا في رحلة إلى زمن النّبوة والصّحابة حيث رأينا حسن معاملة ذوي الإعاقات، ثم دعانا إلى بيته لتناول طعام طيّب، وودّعنا بعد أن دعا لنا بالبركة والصّبر والصّلاح، وودّع الإمام التّرمذيّ بحرارة، وأوصلنا جميعًا إلى باب بيته بعد أن دعا لنا فردًا فردًا.

وقد اقترح أبي على الإمام التّرمذيّ أن يصطحبنا كذلك في رحلة إلى الحاضر ليعرّفه على الإمام العلّامة عبد العزيز بن باز، وكان أبي من أشدّ المعجبين به، فوافق الإمام التّرمذيّ على ذلك رغبة في أن يتعرّف على علماء المسلمين في الوقت الحاضر.

فزرنا الإمام الباز في بيته، فاستقبلنا بحفاوة، وأمر لنا بألذ الطّعام، ثم سأل الإمامَ التّرمذيَّ عن الكثير من القضايا الفقهيّة التي كانت تحيّره، وما وجد جوابًا لها، وتبادلا الحديث عن أحوال الإسلام والمسلمين في الماضي والحاضر.

لم أفهم شيئًا من الكلام الذي دار بين الإمامين حول الكثير من القضايا والمواضيع الدّينيّة والاجتماعيّة والفكريّة؛ فلا أزال في حاجة إلى أن أتعلّم الكثير من العلوم والمعارف، ونحن جميعًا في بيت ديمة نحتاج إلى تعلّم الكثير من الأمور، ولكنّني شعرتُ بفخر كبير؛ لأنّني تعرّفتُ على عالِمين جليلين من علماء الإسلام في الماضي والحاضر.

وقد أبدى الإمام الباز لطفًا كبيرًا تجاهنا؛ إذ تعرّف علينا واحدًا تلو الواحد، وسألنا عن أحلامنا ومشاريعنا، وأهدانا بعض الكتب الفقهيّة المفيدة، كما أمر لنا بعلب تمور تُهدى لكلّ واحد منّا، وخصّ الإمام التّرمذيّ بالهدايا والكتب الفقهيّة التي ألّفها علماء معاصرون.

وقد حدّثنا الإمام الباز عن رحلته في طريق العلم، وكيف استطاع أن ينتصر على العمى الذي أصابه منذ طفولته، ليكون من كبار علماء العصر الحديث، وليتولّى مناصب رفيعة، مثل رئاسة هيئة كبار العلماء في السّعوديّة،

ورئاسة المجلس التّأسيسيّ لرابطة العالم الإسلاميّ، ورئاسة المجلس الأعلى العالميّ للمساجد، ورئاسة المجمع الفقهيّ الإسلاميّ في مكّة المكرّمة.

بعد ذلك زرنا الأديب المصري طه حسين في مكتبه في وزارة المعارف المصريّة في القرن الماضي، دون موعد مسبق بعد أن حدّثنا الإمام الباز عن إعجابه بفصاحته، فقرّر الإمام التّرمذيّ أن يتعرّف عليه قبل أن يرجع إلى زمنه.

وقد استقبلنا طه حسين بحفاوة غامرة على الرّغم من حضورنا دون موعد مسبق، وأطلعنا على تجربته في الانتصار على العمى، وأخذنا في رحلة في كتابه الشّهير (الأيام) الذي تحدّث فيه عبر أجزائه الثّلاثة عن رحلته مع العلم منذ خرج من قريته إلى أن أنهى دراسة الدّكتوراه، وقد اقترحتْ معلمتنا نعيمة أن نقوم برحلة داخل هذا الكتاب لنعاين تجربة طه حسين عن قرب، فوافق الجميع على هذا الاقتراح، فقفزنا جميعًا في فجوة نورانيّة تقود إلى عالم موازٍ لهذا الكتاب، وقد كان القفز فيها صعبًا؛ لأنّها كانتْ مزدحمة بالكثير من العابرين فيها من شخوص وأحداث.

وقد زرنا عبر هذا الكتاب الرّيف المصريّ في طفولة طه حسين حيث رأينا الكتاتيب حيث يدرس أطفال القُرى في مصر، وزرنا الأزهر الشّريف في القاهرة، حيث رأينا كثيرًا من علماء الأمّة يدرسون فيه، وأخيرًا زرنا جامعة السّوربون في فرنسا، حيث حضرنا فيها برفقة طه حسين الكثير من المحاضرات حول الأدب العالميّ حديثًا وقديماً.

وقد تولّت العنزة شقراء مهمّة ترجمة ما نسمع من اللّغة الفرنسيّة

إلى اللّغة العربيّة. وقد رغبنا في أن نقضي المزيد من الوقت في جامعة السّوربون، ولكنّ انخفاض درجات الحرارة فيها قد منعنا من البقاء هناك؛ لأنّنا كنّا نلبس ملابس صيفيّة لا تناسب انخفاض درجة الحرارة في فرنسا.

كانت الرّحلة في كتاب (الأيّام) رحلة ممتعة وجميلة، وتحمل الكثير من التّجارب المفيدة لنا؛ وقد قابلْنا فيها أناسًا من مختلف الشّرائح والأعمار والثّقافات، ورأينا حلقات العلم في الأرياف المصريّة وفي الأزهر، كما رأينا المحاضرات العلميّة وحلقات البحث في جامعة السّوربون، وهناك رأينا الكثير من ذوي الإعاقات يدرسون بكلّ حريّة دون إزعاج أو مضايقة لهم.

وقد دعانا طه حسين إلى رحلة أخرى في روايته الشّهيرة (دعاء الكروان)، ولكنّنا اعتذرنا عن قبول هذه الدّعوة لضيق الوقت، ووعدناه بأن نلبّي دعوته هذه في زيارة أخرى مقبلة.

أبدى طه حسين رغبة شديدة في مرافقتنا في رحلتنا الزّمنيّة عندما علم أنّنا سوف نقوم بزيارة الشّاعر العبّاسيّ الشّهير أبي العلاء المعرّي في بيته، وهو يحبّ أبا العلاء المعريّ، وقد قدّم أطروحته في الدّكتوراه عن شعره وحياته، كما ألّف كتاب (تجديد ذكرى أبي العلاء) في ذكرى رحيله عن الحياة، وطلب من زوجته الفرنسيّة أن ترافقه في هذه الرّحلة، فهو لا يقوم بأيّ رحلات دونها، بعد أن وافق أبي على اصطحابها معنا في هذه الرّحلة.

قفزت المعلّمة نعيمة في الفجوة النّورانيّة، وهي تمسك بيمناها يد طه حسين، وتمسك بيسراها يد زوجته الفرنسيّة، ثم قفزنا جميعًا من بعدهم بحماس كبير، لنصل في لمح البصر إلى بيت قديم صغير في بلدة جميلة اسمها معرّة النّعمان في العصر العبّاسيّ.

طرقنا الباب كثيرًا قبل أن يطلّ علينا خادم صغير، فأخبرناه أنّنا نرغب في مقابلة أبي العلاء المعري، لكنّه رفض أن يسمح لنا بذلك بناء على رغبة سيده بعدم مقابلة أيّ أحد. لكنّ طه حسين صمّم على مقابلته، وأقنع خادمه بالموافقة على دخولنا إلى غرفة أبي العلاء المعرّي، فوافق الخادم على أن نقابل سيده على الرّغم من خوفه من غضبه؛ فهو يعلم أنّه يفضِّل الوحدة على مخالطة النّاس.

كان اللّقاء حميماً بين أبي العلاء المعرّي وطه حسين، وقد تحدّثا طويلًا في شؤون الأدب والشّعر. لم أفهم الكثير من كلامهما، ولكنّني استمتعتُ بعصير التّمر الذي قدّمه لنا خادم المعرّي.

وقد اتّفق المعرّي وطه حسين على أن يقضيا الكثير من الأوقات معًا لأجل التّدارس في شؤون الأدب والفلسفة، وعلى أن يزور أحدهما الآخر في عالمه.

– قال طه حسين لأبي العلاء المعرّي: لكنّني أنتقد عزلتكَ أيّها الفيلسوف العظيم.

– ديمة تسأل أمّها بدهشة: وهل كان أبو العلاء المعرّي يعيش في عزلة؟

– المعلّمة نعيمة في حزن: نعم، كان طوال عمره يعيش في عزلة دائمة، وقد سمّى نفسه رهين المْحَبَسَين.

– وماذا يقصد برهين المحبسين؟

– المعلّمة نعيمة: يعني أنّه سجين العمى والبيت؛ إذ حبس نفسه في بيته لنحو أربعين سنة.

– ديمة تسأل أبا العلاء المعرّي: ولماذا حبستَ نفسكَ في البيت يا أبا العلاء المعريّ لأربعين سنة؟

– أبو العلاء المعرّي: بعض النّاس تعاملوا معي بازدراء؛ لأنّني كفيف البصر، وقد جرح هذا التّعامل شعوري أيّما جرح؛ لذلك قررتُ أن أسجن نفسي في البيت طوال العمر بعيدًا عن النّاس القساة القلوب.

– سماح: هذا قرار محزن، وغير شجاع.

– كان عليك أن تكون شجاعًا، وأن تواجه النّاس بحالتكَ، وأن تفتخر بنفسكَ.

– أبو العلاء المعرّي: ما اسمكِ أيّتها الفتاة؟

– اسمي ديمة.

– أبي: إنّها ابنتي ديمة.

– أمّي: إنّها ابنتنا الحبيبة ديمة.

– أبـو العـلاء المعـرّي: لـو كان لي أصدقـاء رائعـون مثـل أصدقائـكِ، وكانـت هنـاك مَدرسـة جميلـة مثـل مدرسـة بيـت ديمـة، لمـا كنـتُ اعتزلـتُ النّـاس طـوال عمـري.

– نستطيع أن نكون أصدقاءكَ منذ الآن.

– أبـو العـلاء المعـرّي بـسرور: هـذا يسـعدني، وفي يـوم مـا سـآخذكم في رحلـة في عـوالم كتـابي (رسـالة الغفـران) حيـث سـتقابلون عـددًا عملاقًـا مـن شـعراء العربيّـة وأدبائهـا ونقّادهـا.

– يبدو الأمر رائعًا.

بعـد لقائنـا الممتـع بـأبي العـلاء المعـري أعدنـا الإمـام التّرمـذيّ إلى مدينتـه؛ ليحـضر صـلاة الجمعـة فيهـا، وليعطـي دروسـه المعتـادة في حلقـات المسـجد في الأوقـات المضروبـة لذلـك، ووعدنـاه بـأن نـزوره في وقـت آخـر، وأكملنـا رحلتنـا دونـه برفقـة أبي والمعلّمـة نعيمـة وبـدر وسـماح.

توجّهنـا مبـاشرة إلى زيـارة الخليفـة العـادل عمـر بـن عبـد العزيـز في بيتـه المتواضـع الـذي حكـم الإمبراطوريّـة الإسـلاميّة منـه، وكان طـه حسـين يبـدي سـعادته البالغـة بمقابلـة هـذا الخليفـة العـادل المصلـح الصّالـح، وقـد تحدّثنـا معـه عـن حـال ذوي الإعاقـات في إمبراطوريتـه الإسـلاميّة، فبكـى عمـر بـن عبـد العزيـز رحمـةً بهـم وبنـا، وأخبرنـا أنّـه قـام بإحصـاء أعدادهـم في إمبراطوريتـه، وأصـدر قانونًـا يقـضي بتخصيـص مُرافـق لـكلّ كفيـف، وتخصيـص خـادم لـكلّ مقعـد أو عاجـز أو مريـض لا يسـتطيع الحركـة، أو لا يسـتطيع خدمـة نفسـه.

عندهـا هلّلنـا، وكبّرنـا تقديـرًا لقانونـه هـذا، ودعونـا لـه بالبركـة والرّحمة؛ لأنّـه خليفـة عـادل ورحيـم القلـب؛ إذ لم ينـسَ ذوي الإعاقـات مـن عطفـه ورعايتـه، عندهـا بكـى الخليفـة العـادل خشـية مـن الله حتـى ابتلّـتْ لحيتـه، واسـتأذن منّـا ليغادرنـا؛ لأنّ عليـه أن يرعـى شـؤون المسـلمين بعـد أن أمـر لـكلّ واحـد منّـا بمـصروف شـأننا شـأن أيّ زائـر يـزور مدينتـه، ولا يحمـل نقـودًا للنّفقـة عـلى نفسـه.

بعـد ذلـك انتقلنـا إلى زمـن الخليفـة الأمـويّ الوليـد بـن عبـد الملـك الـذي أخَذَنا إلى مؤسّسـة أنشـأها في عـام 88 هجريًّـا لرعايـة ذوي الإعاقات، ووظّـف الأطبّـاء والخـدّام فيهـا، وصرف رواتـب دائمـة لـذوي الإعاقـات كـي يغنيهـم عـن سـؤال النّـاس والحاجـة إليهـم، وقـال لهـم: «لا تسـألوا النّـاس». أيّ لا تطلبـوا الصّدقـات والمسـاعدات منهـم.

وقـد أمضينـا وقتًـا طويـلاً في زيـارة نـزلاء هـذه المؤسّسـة، ورغبنـا في التّواصـل الدّائـم معهـم، ولكـن ذلـك بـدا مسـتحيلًا؛ لأنّهـم مـن عصـور سـبقتنا، ولا (إنترنـت) عندهـم لنتواصـل عـبر الرّسـائل الإلكترونيّـة أو الرّسـائل القصـيرة عـبر الأجهـزة الخلويّـة النّقّالـة الخاصّـة، ولذلـكَ اكتفينـا بقضـاء الأوقـات الجميلـة معهـم، ثـم ودّعناهـم سـعيدين بأنّهـم يعيشـون في رعايـة وخـير وصحّـة.

شـعرنا بالتّعـب والحاجـة إلى العـودة إلى بيـت ديمـة كـي نسـتريح، ولكـن المعلّمـة نعيمـة صمّمـت عـلى زيـارة مستشـفى السّـلطان قـلاوون الـذي أنشـأه في العـصر المملوكـيّ مـن أجـل تقديـم الرّعايـة الصّحيّـة

لـذوي الإعاقـات، فوافقنـا عـلى زيـارة هـذا المستشـفى لنطّلـع عـلى الخدمـات التـي يقدّمهـا، لا سـيما أنّ أمّـي عفـاف أبـدتْ رغبتهـا في زيـارة هـذا المستشـفى.

رحّـب بنـا مديـر هـذا المستشـفى الـذي يسـمى المارسـتان، وطـوّف بنـا في أرجائـه، وعرّفنـا عـلى نزلائـه مـن ذوي الإعاقـات، وسـمح لنـا بأن نقـدّم لهم بعضًـا ممّـا نحمـل مـن تمـور وهدايـا بعـد أن أعلمنـا أنّ السّـلطان المملوكـيّ قـلاوون قـد أمـر بـصرف راتـب لـكلّ مَـن يخـرج مـن هـذا المستشـفى.

قرّرنـا أخـيرًا أن نعـود إلى بيت ديمة؛ لنرتـاح، ونواصل أخذ دروسـنا، لكنّ طـه حسـين صمّـم عـلى أن نـزور الشّـاعر بشّـار بـن بُـرْد في العـصر العبّـاسيّ؛ لأنّـه معجب بظرفـه وإيجابيتـه في التّعامل مـع فقدانه بصره، فوافقنـا جميعًا على القيـام بهـذه الرّحلـة على أن تكـون المحطّـة الأخيرة في هـذه الرّحلة.

وصلنـا إلى بيـت بشّـار بـن بـرد في وقـت غـروب الشّـمس، فوجدنـاه جالسًـا تحـت نخلـة في فنـاء بيتـه، وحولـه الكثـير مـن الصّبيـة والصّبايـا يسـمعون شـعره، فجلسـنا مـع الجالسـين، وسـمعناه يقـول:

وعـيّرني الأعـداء والعيـب فيهـم فليـس بعـار أنْ يُقـال ضريـر

إذا أبـصر المـرء المـروءة والتُّقـى فـإنّ عمـى العينـين ليـس يضـير

رأيـتُ العمى أجـرًا وذخـرًا وعصمة وإنّي إلى تلـك الثّـلاث فقـير

– ديمة بفضول: ما معنى هذا الكلام يا أمّي؟

– أمـي عفـاف: معنـاه أنّـه يرفـض أن يعـيّره أيّ إنسـان بعـماه، ويـرى

هـذا العمـى طريقًـا نحـو الأجـر مـن الله تعـالى، كـما يـرى أنّـه ليـس أعمـى مـادام يقـوم بأعـمال المـروءة والتّقـوى.

– ديمة: إنّه رجل ذكيّ وقويّ بحقّ.

– أمي عفاف: نعم، إنه كذلك.

لقـد كان بشّـار بـن بـرد ظريفًـا لطيفًـا يقـول الكثير مـن الشّـعر المضحك، ويداعـب الجميـع، وقـد سـألَنا عـن أسـمائنا، وكتـب لـكلّ واحـد منّـا بيـت شـعر يتضمّـن اسـمه، ثـم أخـذ يداعـب خادمتـه ربـاب قائـلاً:

ربابـة ربّـــة البيـــت تصـــبّ الخـــلّ في الزّيـــتِ

لهـــا عشـــرُ دجـاجـــات وديـــكٌ حســـن الصّـــوتِ

أخـذت الخادمـة تضحـك فرحـة بـما قال بشّـار بـن برد مـن شـعر، وأخذنا نـردّد هذيـن البيتـين لنداعبهـا، وهـي تضحك بسـعادة على اسـتحياء.

لم يكـن بشّـار بـن بـرد حزينًـا لأنّـه كفيـف العينـين لا يـرى، وكان يجيـد الاسـتمتاع بحياتـه.

لقـد أحببتـه جـدًّا، وتعلّمـتُ منـه أنّنـي أسـتطيع أن أكـون سـعيدة حتـى ولـو كنـتُ أفهـم الحيـاة بطريقـة مختلفـة، وأشـعر بشـعور مختلـف؛ لأنّنـي وُلـدتُ أعـاني مـن مـرض (متلازمـة داون)، وقـد بكيـتُ عندمـا غادرنـا بيـت بشّـار بـن بـرد الـذي نظـم لي بيـت شـعر يقـول فيـه:

وديمـــة ربّـــة العنـــز تصـــبّ الزّيـت فـي الخبـــز

لقد شعرنا بتعب شديد بعد هذه الرّحلة الطّويلة في العصور الماضية، وقرّر أبي أن يعود بنا إلى بيت ديمة بعد أن نوصل طه حسين إلى بيته، لكنّه صمّم على أن يزور الشّاعر الكُمَيْت بن زيد الذي يعيش في العصر الأمويّ، ورغّبنا في ذلك قائلاً: إنّه شاعر عظيم، وهو أيضًا من ذوي الإعاقات؛ فهو كفيف البصر، ولكنّه على الرّغم من ذلك غدا من أكبر شعراء العصر الأمويّ.

لكنّ المعلّمة نعيمة صمّمتْ على أن نعود إلى بيت ديمة مباشرة دون تأخير؛ لأنّها قد تأخّرت عن أولادها الثّلاثة الصّغار، ويجب أن تعود إليهم كي تطعمهم، وتكون إلى جانبهم عندما ينامون كي يذهبوا في الصّباح إلى مدارسهم.

شعر طه حسين بالانزعاج؛ لأنّه لم يستطع أن يقنعنا بزيارة الشّاعر الكميت بن زيد، لكنّ أبي وعده باصطحابه إلى بيت هذا الشّاعر في زيارة أخرى، عندئذ انفرجتْ أسارير طه حسين، ودخل إلى مكتبه مسرورًا نشيطًا، وهو ينوي أن يكتب مقالة علميّة طويلة عن أبي العلاء المعري بعد أن قابله شخصيًّا، وتحدّث إليه لفترة طويلة.

ودّعنا طه حسين، وركبنا زورقًا في جولة صغيرة في نهر النّيل حيث النّسيم العليل الجميل وفرح السّاهرين على امتداده، وعندما عدنا إلى ضفّته بعد انتهاء الجولة النّهريّة حيث سمعنا الغناء المصريّ الأصيل، قفزنا مباشرة في الفجوة النّورانية، ونحن نكرّر بفرح وحبور كلمات الأغاني المصريّة التي سمعناها إلى أن وصلنا إلى بيت ديمة.

الفصل السّادس

الأنامل السِّحريَّة

«عندما يُغلق باب سعادة ما، يُفتح آخر، ولكن في كثير من الأحيان ننظر طويلاً إلى الأبواب المغلقة، فلا نرى الأبواب التي فُتحت لنا».

هيلين كيلر

فيكي الذّهبيّة

عادت السّعادة إلى قلب بدر بعد أن أدرك أنّه يستطيع أن يلتقي صديقته المفضّلة سماح كلّما اشتاق إليها، وقد عادتْ إلى بيتها في البلد البعيد بعد رحلتنا الجميلة، ولكنّها ظلت تلتقي مع بدر عبر الفجوة النّورانيّة بموافقة والدي ومرافقته.

وقد اصطحبَنا والدي في رحلة إلى مدينة سماح حيث تعرّفنا على والديها، وقضينا بعض الوقت في بيتها، ثم قمنا بزيارة لبعض دور رعاية ذوي الإعاقات في تلك المدينة، وقد أدهشتنا تلك الخدمات الرّاقية التي تُقدَّم لهم من رعاية وتأهيل ودمج في المجتمع. وقد عقد والدي عدّة اتّفاقيّات مع بعض تلك المؤسّسات من تبادل الخبرات معها حول رعاية ذوي الإعاقات.

استطاع أبي كذلك أن يوقّع مذكرات تبادل كفاءات بين مدرسة بيت ديمة وتلك المؤسّسات، وبذلك استقطب فيكي، وآدم ليُدرِّسا في مدرستنا.

فيكي كانت معلّمة في غاية الجمال، شعرها أشقر كخيوط الشّمس، وبشرتها ذهبيّة بهيجة، أطلقنا عليها فيكي الذّهبيّة إعجابًا بإشراقها وجمالها الباهر، وقد كانتْ دائمة الابتسام، فتبدو أكثر لمعانًا وبريقًا وجمالًا، وقد كانتْ تدرِّس لغة الإشارة للصمّ والبكم، وهي صمّاء بكماء، من يراها يعتقد أنّها تسمع كلّ كلمة يقولها الآخرون، لكنّها في حقيقة الأمر لا تسمع أيّ كلمة، ولو وقعت السّماء على الأرض ما سمعتْ صوتًا لذلك، ولكنّها كانت تجيد قراءة حركات الشّفاه، وتدرك سريعًا بفراستها معاني الإيحاءات وحركات تفاصيل الوجه والجسد.

كانت فيكي الذّهبيّة تدرِّس لغة الإشارة لطلبة بيت ديمة من الصمّ والبكم، وبفضلها أصبحوا جميعًا يجيدون هذه اللّغة في مدّة قصيرة، ويتواصلون عبرها في حوارات طويلة، بعد أن كانوا قليلي التحدّث، نادري الابتسامة أو الانفعال أو المشاركة في التّواصل.

وقد كانت هناء التي أحضرناها إلى بيت ديمة في رحلتنا السّريّة الأولى هي خير من تعلّم تلك اللّغة في فترة وجيزة، وأخيرًا بدأتْ تبتسم، وتبدي رغبتها في المشاركة في لعبنا، بعد أن هجرت عادتها في الجلوس وحيدة في الزّوايا والأماكن البعيدة عن جماعتنا، وبدأت تصبح فتاة حلوة مرحة تطيل الجري واللّعب مع الأطفال، وتسعد عندما تدفع الكراسي المتحرّكة لأصدقائها الذين لا يستطيعون المشي، وتطير فرحًا كلّما طلبوا منها بلغة الإشارة أن تقدِّم لهم أيّ خدمة.

لقد ربطتْ صداقة عجيبة ومتينة بين المعلّمة فيكي وهناء، وكثيرًا ما كانتا تقضيان الأوقات معًا في بيت ديمة تتحدّثان دون توقّف. لم نكن بالطّبع نعرف عمّا كانتا تتكلّمان، ولكنّنا أدركنا أنّهما كانتا تتحدّثان عن حياتيهما بكلّ ما فيهما من تفاصيل وذكريات.

وقد استطعنا أن نتعلّم مع طول صحبتهما بعض الإشارات الضّروريّة في التّواصل معهما، وبدأنا نشعر بأنّ هناء بدأت تنمو جسديًّا بسرعة كبيرة، وقد أصبحتْ في مثل طول معلمتها فيكي، وباتْ من يراهما يظنّ للوهلة الأولى أنّهما شقيقتان على الرّغم من أنّ المعلّمة فيكي شقراء كالشّمس مثل أمّها السّويديّة، وهناء سمراء مثل القهوة.

أحيانًا كانت المعلّمة فيكي تقرأ في كتاب كبير، وتحدّث هناء عمّا فيه بلغة الإشارة، وأحيانًا كنّا نتلصّص عليهما، فنفهم من بعض الإشارات أنّهما تتحدّثان عن كيفيّة التّعبير بالإشارات عن بعض الكلمات.

بصعوبة استطعتُ أن أقرأ عنوان الكتاب، وقد كان عنوانه (أغنية الجدار الحجريّ) لكاتبة اسمها هيلين كيلر. لقد سألتُ أبي عن هذه الكاتبة، فأخبرني أنّها كاتبة شهيرة من ذوي الإعاقات، كما أخبرني أنّها تلقّب بمعجزة الإنسانيّة، ووعدني بأن نزورها في أقرب فرصة؛ لأنّها نموذج للمرأة القويّة التي رفضتْ أن تستسلم للإعاقات التي أصابتها، وأصبحتْ رمزًا لانتصار الإرادة البشريّة.

القبو الأخرس

اسمي هناء، أو هكذا أسمتني ديمة عندما قابلتني لأوّل مرّة في حياتي، كنتُ حينها مربوطة وحيدة في قبو قديم، لم أعرف في يوم ما هو اسمي، ولم يحاول أحد في يوم أن يخبرني به؛ فأنا لا أسمع، ولا أنطق، ولم يحاول أحد أن يبذل أيّ جهد لأجل أن يعرّفني باسمي.

لا أعرف الكثير عن حياتي، ولا أكاد أتذكّر منها إلّا العدم والخوف والجوع والصّمت المطبق الرّهيب. وُلدتُ في عائلة لا أعرف الكثير عنها؛ فمنذ طفولتي رفضتني أسرتي؛ لأنّني لا أسمع، ولا أتكلّم، كان البيت كبيرًا، ويعجّ بالكبار والصّغار، لا أستطيع أن أحدّد العلاقات التي كانت تربط أحدهم بالآخر، أو تربطني بهم، ولكنّني أتذكّر جيّدًا أنّ تلك المرأة التي كانت تقدّم لي الطّعام، وتشبهني في ملامحها، كانت أقلّهم قسوة عليّ؛ لعلّها كانت أمّي، ولعلّ أولئك الصّغار كانوا إخوتي، أو أبناء أقاربي، ولكنّهم جميعًا تخلّوا عني، وأرادوا حجبي عن عيون الغرباء خجلًا منّي لأنّني أعاني من إعاقات حسيّة.

كان آخر يوم رأيت النّور والحرّية والحديقة هو يوم عضضتُ طفلًا صغيرًا ضربني دون توقّف لسبب لا أعرفه، وأخذ التّفاحة التي كنتُ أقضم منها، يومها أخذني ذلك الرّجل الغليظ، وسجنني في ذلك القبو إلى الأبد، وعندما رفضتُ سجني في ذلك المكان المعتم الرّهيب، قام بربطي بعمود قديم بعد أن أوثق يدَيّ وقدمَيّ كي يمنعني من أيّ حركة كانت.

أمضيتُ زمنًا رهيبًا في ذلك المكان، وما استطعتُ أن أعرف سببًا لاضطهادي وتعذيبي وعزلتي في ذلك المكان سوى أنّني لا أسمع، ولا أتكلّم، وتساءلتُ طويلاً: هل هذا العجز هو بسببي؟ أم بسبب قدرة عملاقة خارجة عن إرادتي؟

طبعًا لم أجد جوابًا لهذا السّؤال الملحّ، وظلّ حلمي الوحيد محصورًا في أن أهرب من ذلك القبو، وأن لا أعود إليه أبدًا؛ كنتُ في حاجة إلى أن أهرب إلى أبعد مكان في الدّنيا.

كانت ديمة هي أوّل من حرّرتني من سجني هذا، وأخذتني نحو النّور والدّفء والحنان في بيت ديمة الذي أصبح بيتي الحقيقيّ، وغابتْ صور وجوه عائلتي الذين لم أعرف عنهم شيئًا في حياتي، وأصبح الدّكتور شجاع الورديّ هو والدي، والطّبيبة عفاف والمعلّمات هنّ أمّهاتي، وديمة هي أختي الحبيبة المنقذة لي، والمعلّمة فيكي هي طريقي نحو المعرفة والحياة والمحبّة والحلم والأمل.

عبر أنامل فيكي تعلّمت أنّ الحياة واللّغة والمعرفة يمكن أن تسكن في الأصابع التي تشكّل لغة للتّواصل عندما تعجز الأذن عن السّماع، ويعجز الفم عن الكلام، لقد عرفتُ عبر الأنامل أنّ عائلتي رفضتني؛ لأنّني وُلدتُ معاقة دون ذنب لي في ذلك، وعرفتُ كذلك أنّ الكثير من أمثالي من البشر، ممّن يعانون من إعاقات، يُعاقَبون على ذلك من الأهل والمجتمع، بدل أن يُقدَّم العون لهم، وأدركتُ أنّني محظوظة؛ لأنّني هربتُ من عالمي المتوحّش، وجئتُ إلى بيت ديمة حيث العلم والمحبّة والتأهيل والرّعاية.

معلّمتي فيكي هي مَن حوّلت الصّمت الرّهيب الذي أعيش فيه إلى مقطوعة موسيقيّة سعيدة؛ فعبر أناملها السّحريّة الدّافئة تعلّمتُ الحياة واللّغة والفرح.

لقد وُلِدَتْ مثلي صمّاء بكماء، ولكن أمّها السّويديّة المتعلّمة لم تتخلَّ عنها، وأرسلتها إلى أفضل مدارس الصّم والبكم حيث تعلّمت لغة الإشارة، فسهل عليها أن تتواصل مع العالم.

بقيتْ تعيش مع والدتها في السّويد زمنًا طويلاً، ثم انتقلتْ مع والدتها لتعيش مع والدها الألمانيّ في البلد الذي تعيش سماح صديقة بدر فيه، وهناك عملتْ في أكبر مؤسّسة لرعاية ذوي الإعاقات، ومن ثم انتقلتْ إلى بيت ديمة لتعمل فيه، بعد أن قابلت الدّكتور شجاع الورديّ صدفة، وعرض عليها العمل معه في بيتنا. أنا ممتنّة لله الذي يسّر لي المعلّمة فيكي التي كانت مفتاحي نحو نفسي.

الأصمّ الأبكم يعيش دائماً في عالم زجاجيّ مطبق الصّوت مرعب الهدوء، هو يرى كلّ شيء عبر زجاج هذا العالم، ولكنّه لا يسمع أبدًا ما يدور فيه من كلام، كما لا يستطيع أن يسمع صوته لمن هو خارج هذا الزّجاج، البكم هو أن تبقى كلماتكَ حبيسة حنجرتكَ، وأن يتبدّد صوتكَ قبل أن يلفظ ما تريد أن تقول من كلمات، والصّمم هو أن تظلّ حبيس عالم زجاجيّ معزول لا صوت فيه.

الصّمم هو الوحدة بين جمع غفير من النّاس، هو الرّقص ألمًا من الذّبح، في حين يظنّ مَن حولكَ من النّاس أنّك ترقص مبتهجًا سعيدًا.

الآن أستطيعُ أن أصرخ، وأن أسمع، وأن أتكلّم عبر أناملي. تأمّلوا حركة أصابعي؛ فهي تقول لكم: أحبّكم.

آن سوليفان: قلب من نور

لقد قرأتُ هذا الكلام في أعماق هناء، أخيرًا أصبحتْ سعيدة، لقد بدأتْ تحلم، وحلمها الكبير هو أن تزور هيلين كيلر كاتبة كتاب (أغنية الجدار الحجري)، فقد عرفتْ تفاصيل نضالها كلّها، وقرأتْ كتابها هذا أكثر من مرّة، ثم قرأتْ كتبها الأخرى جميعًا. وقد جعلتُ منها قدوتي في حياتي بعد أن عرفتُ أنّها قدوة المعلّمة فيكي.

هي صمّاء بكماء عمياء منذ طفولتها بسبب إصابتها بمرض التهاب السّحايا، ولكنّها قاومت إعاقاتها جميعًا، وانتصرتْ للحياة، وتعلّمَت النّطق، وحصلتْ على درجة الماجستير في النّحو واللّغة الإنجليزيّة والدّكتوراه في الفلسفة، وقد وصلتْ إلى ذلك كلّه عبر عون معلّمتها المخلصة آن سوليفان التي رافقتها لمدّة 49 سنة، وقدّمتْ لها الدّعم كلّه؛ فقد كانتْ امرأة نادرة الوجود، لها قلب من نور، فغمرتْ طالبتها بكلّ القوّة والبهجة والإصرار.

لقد أخبرتُ والدي بحلم هناء بمقابلة هيلين كيلر، فقرّر أن يأخذنا في رحلة إلى بيتها؛ إذ رأى في هذه الرّحلة فرصة لتحقيق حلم المعلّمة فيكي وهناء في مقابلة هيلين كيلر ومعلّمتها آن سوليفان، والتّعرّف عليهما عن قرب.

وأمّي عفاف كانت ترغب في الاطّلاع على تجربة آن سوليفان في تعليم هيلين كيلر كي تستفيد منها في تعليم طلبة بيت ديمة.

لقد أخبرنا والدي بقراره، وحدّد موعدًا لرحلتنا المنتظرة، فطار الجميع فرحًا بالرّحلة، ولكنّ المعلّمة فيكي وهناء كانتا الأسعد بهذا الخبر، وقالتا له بلغة الإشارة: نحبّك أيّها الرّجل الطّيب.

وفي صبيحة اليوم التالي انزلقنا نحو الماضي عبر الفجوة النّورانيّة حتى وصلنا إلى مدينة توسكومبيا في ولاية ألاباما في الولايات المتحدة الأمريكيّة، فوجدنا أنفسنا في بيت تعيش فيه امرأتان تبدوان في السّن ذاتها، لقد شرحتْ لهما المعلّمة فيكي من نكون وما سبب زيارتنا لهما، فحظينا عندهما باستقبال حارّ منهما، ودَعَتْنا هيلين كيلر إلى تناول لحم الضّأن المشويّ وعصير الإجّاص في حديقة بيتها الرّيفيّ الكبير، وقد رحّبنا بهذه الدّعوة اللّطيفة، لا سيما أنّنا نحبّ قضاء الوقت في حدائق البيوت الرّيفيّة حيث الخضرة والماء والفراشات الملوّنة والهواء النّقيّ.

كان التّواصل بين الجميع يأخذ أكثر من شكل؛ فالعنزة شقراء تترجم كلام المعلّمة آن سوليفان إلى العربيّة، وفيكي تترجم الكلام من العربيّة إلى لغة الإشارة، ووالدي كان يبسّط الكثير من الجمل لي ولأصدقائي من مرضى (متلازمة داون) كي نفهمها، وأمّي عفاف كانت تخصّني بالشّرح وتبسيط الحوار الدّائر بين الموجودين، أمّا المعلّمة نعيمة، فقد كانت تبذل جهودًا متواصلة كي تبسّط الكلام، وتقدّمه في أسهل صورة لأصدقائنا الأطفال الذين يعانون من مشاكل في تأخّر الفهم والاستيعاب.

في هـذا اللّقـاء أدركنـا أنّ البـشر يسـتطيعون أن يتواصلـوا، وأن يتفاهمـوا إن أرادوا ذلـك بصـدق وإخـلاص مهـما كانـت العوائـق مـن إعاقـات واختـلاف اللّغـات وتبايـن الأزمـان وتنـوّع الحضـارات وتباعـد المسـافات.

جميعنـا أُعجـب إعجابًـا جمًّـا بـهيلين كيلـر ومعلّمتهـا العظيمـة آن سـوليفان التـي تحدّثـتْ معهـما هنـاء والمعلّمـة فيكـي بـكلّ إعجـاب وتقديـر، وأخبرتـا الجميـع بلغـة الإشـارة أنّ آن سـوليفان تعرّفـت عـلى هيلـين كيلـر عندمـا كانـتْ في العشريـن مـن عمرهـا، وقـد رافقتهـا منـذ ذلـك الوقـت لمـدة 49 سـنة قضتهـا في تعليمهـا وعونهـا ومرافقتهـا في السّـفر، كـما أنّهـا تـرى مـا فعلتـه ليـس إلّا واجبهـا نحـو طالبتهـا المعجـزة هيلـين كيلـر؛ فمـن واجـب المعلّـم والمعلّمـة أن يقفـا إلى جانـب طلبتهـما عندمـا يحتاجـون إليهـما.

وعجبنـا العجـب كلّـه عندمـا اكتشـفنا أنّ هيلـين كيلـر قـادرة عـلى النّطـق عـلى الرّغـم مـن أنّهـا لا تسـمع، وقـد تعلّمـت النّطـق بمعونـة معلّمتهـا آن سـوليفان، بـل إنّهـا تجيـد التّحـدّث باللّغـات الألمانيّة والفرنسـيّة واللاتينية واليونانيّـة. وقـد انهـال الأصدقـاء عليهـا بالأسـئلة حبًّـا في معرفـة المزيـد عـن هـذه المـرأة المعجـزة، وهـي تجيـب عـن أسـئلتهم مبتسـمة فرحـة.

– هل تستطيعين مغادرة بيتكِ وحدكِ دون مساعدة أو مرافق لكِ؟

– هيلـين كيلـر: بالطّبـع أسـتطيع ذلـكَ، لقـد زرتُ الكثـير مـن دول العـالم دون مرافق أو مسـاعد.

– وكيـف اسـتطعتِ أن تقهـري العمـى والصّمـم والبكـم، وأن تـزوري الكثـير مـن دول العـالم؟

– هيلـين كيلـر: بـالإرادة اسـتطعتُ أن أفعـل ذلـك، وأن أرى الله في كلّ مـا خلـق؛ فعجائبـه ومحبتـه ورحمتـه تشـملني بشـكل دائـم.

– وهل تقبَّلك العالم الخارجيّ بسهولة؟

– هيلـين كيلـر بثقـة: لم أكـن أنتظـر تقبّلـه لي؛ فقـد صمّمـتُ عـلى أن يكون لي مـكان فيـه، ولذلـك قمـتُ بتأسـيس منظّمـة هيلـين كيلـر الدّوليّـة (HKI)، كذلـك سـاهمتُ في تأسـيس الاتّحـاد الأمريكـيّ للحريّـات المدنيّـة (ACLU)، ودافعـتُ –دون توقُّـف– عـن حقـوق ذوي الإعاقـات، وجمعـتُ الأمـوال لصالحهـم مـن كلّ مـكان ذهبـتُ إليـه لأجـل تأهيلهـم ورعايتهـم وإنشـاء المؤسّسـات الخاصـة بتعليمهـم.

– وهـل اسـتطعتِ أن تعيـشي حيـاة طبيعيّـة مثـل أيّ إنسـانة لا تعـاني مـن إعاقـة مـا؟

– هيلـر كيلـر: لقـد نجحـتُ بحـقٍّ في أن آخـذ الجميـع إلى عالمـي، فكتبـتُ عـن عوالمـي وتجربتـي، وجعلـتُ كلّ مـن يقـرأ لي يعيـش تجربـة الإنسـان عندمـا يُحـرم مـن بـصره أو سـمعه أو نطقـه أو يُحـرم مـن غيرهـا مـن هبـات الله عـز وجـلّ.

– ديمة بتحرُّج وخجل: هل أنتِ سعيدة الآن؟

– هيلـين كيلـر: عمـري الآن نحـو 88 سـنة، ولم أشـعر في أيّ لحظـة بأنّنـي لسـتُ سـعيدة؛ أنـا دائمـة الشّـكر لله، سـعيدة بعطاياه.

– المعلّمة نعيمة: أبنائي الأحبّاء، هل تريدون أن تقولوا شيئًا لله؟

– الأطفال بصوت واحد: اللّهم لكَ الشّكر لأنكَ خصصتنا بنعمكَ الكثيرة.

– المعلّمة آن سوليفان: الله لا ينسى أحدًا من عباده ورحمته.

كنّا نرغب في طرح المزيد من الأسئلة على هيلين كيلر وعلى معلّمتها العظيمة آن سوليفان، ولكن والدي اقترح أن نغادر المكان؛ لأنّ الوقت قد تأخّر، ويجب أن يعود الأطفال المختلفون إلى بيوت ذويهم، وذلك بعد أن شرح لهيلين كيلر كيفيّة السّفر عبر الأزمان، وذكر لها أنّنا نقوم برحلات نزور فيها أصدقاءنا من ذوي الإعاقات في كلّ مكان وزمان؛ كي نتعلّم منهم دروس النّجاح والإبداع والانتصار.

لقد أبدت هيلين كيلر إعجابها بهذه الطّريقة في السّفر، ورغبتْ في أن ترافقنا في رحلة ما عبر الفجوة النّورانيّة؛ لتنشر أفكارها عن الصّبر والتّحدّي والنّجاح في كلّ مكان تزوره، لا سيما أنّها بصدد تأليف كتاب جديد عن هذا الموضوع، وقد وعدها والدي بأن يصطحبها معنا في رحلة قريبة مرتقبة.

قرّرنا المغادرة عبر الفجوة النّورانيّة المتاحة في حديقة منزل هيلين كيلر بعد أن أهدتنا عددًا من كتبها لأجل أن تكون متاحة للاطّلاع عليها في مكتبة بيت ديمة، ولكنّ المعلّمة فيكي وهناء قرّرتا ألا تغادرا المكان معنا، وأن تبقيا إلى الأبد في عالم هيلين كيلر؛ فهذه فرصتهما كي تتعلما منها ومن آن سوليفان النّطق والكلام بعد أن قضيتا السّابق من عمرهما لا تنطقان أبدًا.

قالتْ فيكي لأبي عبر لغة الإشارة: نحن ننتمي إلى هيلين كيلر، وهذه فرصتنا لنتعلّم النّطق، وهناء سعيدة جدًّا بهذه التّجربة، وتريد أن تظلّ في هذا العالم، وأنا أريد أن أكون مثل آن سوليفان معلّمة مخلصة ومتفانية تضحّي بوقتها من أجل طالبتها.

– أبي: إنّها تضحية كبيرة يا فيكي.

– فيكي بلغة الإشارة: أنا مصمّمة عليها.

– أبي: إنّها مغامرة كبيرة يا هناء.

– هناء بلغة الإشارة: أريد أن أستمتع بهذه المغامرة.

– أبي: لا أستطيع أن أمنعكما من تحقيق ما تحلمان به.

– فيكي وهناء بلغة الإشارة: نحبّكَ يا أبتاه.

– أمّي عفاف: كان الله في عونكما ومساعدتكما.

– ديمة بحزن: سوف أشتاق إليكما كثيرًا.

لقد حزنتُ كثيرًا لأنّنا قرّرنا العودة إلى بيت ديمة دون المعلّمة فيكي وهناء؛ فهما أوّل صديقتين أخسرهما في حياتي، ولكنّني سعدتُ لأنهما تحقّقان ما تحلمان به، وفكّرت بعمق حلمي في أن أتزوّج من عون، وأن يكون لي طفل جميل منه، نظرتُ إلى عون الذي يقف بالقرب مني، وقلتُ له: هيا.. لنعد إلى بيت ديمة.

– هيّا بنا.

أمسك عون بيدي بحنان غامر، وكأنّه يسمع حلمي الذي يتردّد في أعماقي دون انقطاع، ثم قفزتُ وإيّاه وأمّي عفاف في الفجوة النّورانيّة، ثم قفز الجميع بعدنا في الفجوة النّورانيّة الواحد تلو الآخر، إلى أن وصلنا إلى بيت ديمة دون فيكي أو هناء اللّتين اختارتا البقاء بالقرب من هيلين كيلر وآن سوليفان.

الفصل السَّابع

القدم الرَّاكضة

«لا يوجد خطّ نهاية، هذه هي حياتي كما أراها».

مارلا رونيان

اسمي زيد الخير الفزاريّ، أنا من قبيلة فزارة العربيّة، هي واحدة من قبائل العرب. عمري في عالمي أربعة عشر عامًا، ولكن عمري في العالم الحاضر، وهو المستقبل بالنّسبة إلي، نحو 1450 سنة، كنتُ أعيش في قبيلتي عندما أنقذتني ديمة والأصدقاء من هجوم أطفال القبيلة عليّ بالحجارة، لقد أخذوني من عالمي في الصّحراء حيث القسوة والظّلم والعداء، ونقلوني إلى بيت ديمة حيث المحبّة والخير والإخاء.

أنا يتيم، ولا إخوة لي، جدّتي لأبي هي من ربّتني، وهي طيّبة القلب، وتحبّني كثيرًا، وأنا أقوم بإخراج أغنامها القليلة إلى المرعى، وقد أُصبتُ في طفولتي بكسر في قدمي سبَّب لي عرجًا دائمًا.

أطفال القبيلة يكرهونني، ويطلقون علي لقب زيد الشّؤم الأعرج، ويقولون إنّني شؤم على مَنْ يراني، ويضربونني دائمًا دون توقّف، وهذا يؤلمني جدًّا، ويجعلني أُفضِّل أن أعيش وحيدًا مع الماشية والكلاب والذّئاب في رؤوس جبال على أن أعيش معهم، وأتحمّل تعذيبهم لي.

ليس ذنبي أنّني أعرج، فهذا ما أراده الله لي، وقد خلقني طيّب النّفس، حنون القلب، وقد كنتُ أقوم بخدمة جدّتي بإخلاص ومحبّة، لا بدّ أنّها الآن حزينة على فراقي، ولكنّني أعيش هنا حياة هي أفضل بكثير من الحياة التي كنتُ أعيشها في قبيلتي.

لقد تعلّمت القراءة والكتابة في بيت ديمة، وبذلك أصبحتُ الصّبي الوحيد الذي يجيد القراءة والكتابة في قبيلتي، كذلك أصبح عندي الكثير من الأصدقاء في هذا المكان، جميعهم يعانون من إعاقات جسدية أو عقليّة، ولكنّهم مصمّمون على الحياة والأمل والفرح، وأنا أحبّ معنوياتهم العالية ونفوسهم الأبيّة المتحدِّية.

العرج داء مؤلم مثل أي داء يحرم الإنسان من حريّته في الحركة والتّمتّع بالحياة، وقد كنتُ عاجزًا عن التّأقلم معه في الماضي؛ فأولاد القبيلة كانوا يعذّبونني ليل نهار بسبب هذا العرج، ويذكّرونني به في كلّ لحظة، حتى إنّني كرهتُ المشي، وغدوتُ أسمع صليلًا مزعجًا لكلّ خطوة من خطواتي، لدرجة أنّني اعتقدتُ أنّ خطوات رجلي العرجاء تزعج كلّ من يسمعها، لكنّني اكتشفتُ الآن أنّني إنسان كامل لا ينقصه شيء على الرّغم من عرجي الذي أراه طفيفًا، ولا يقلّل من نشاطي وطاقتي وقدرتي على مساعدة النّاس.

الخوف من صبية قبيلتي علّمني أن أصبح عدّاءً ماهرًا، فأنا أستطيع أن أسبق أصحّاء الأقدام بالرّكض، ولذلك باتْ حلمي

الأوحد أن أدخل سباقًا دوليًّا للعدْو كي أفوز به، وأبرهن لقبيلتي أنّني رياضيٌّ متميّز، لا مجرّد أعرج يُطارَد بالحجارة.

***

هذا هو حلم زيد الخير الفزاريّ، لقد سمعتهُ يحدِّث نفسه طويلاً به، وقد أخبرتُ والدي بهذا الأمر، فقرّر أن نذهب في رحلة من أجل تأهيله للمشاركة في (الماراثون) العالميّ للعدْو.

منذ فترة طويلة لم نقم بأيّ رحلة من رحلاتنا عبر الفجوة النّورانيّة؛ فقد كنّا نخوض برنامجًا مكثّفًا للتّأهيل والتّواصل مع ذواتنا وإعاقاتنا، لقد كان البرنامج معنيًّا بأن نشكّل تصوّرًا إيجابيًّا عن أنفسنا وطاقاتنا وأحلامنا في ظلّ إعاقاتنا، وفي نهاية البرنامج قدّمنا تصوّراتنا عن أحلامنا في ورشة عمل ذكر فيها كلّ منا نقطة ضعفه، وما يستطيع عمله في ضوء ضعفه، وما يحلم بأن يعمله وفق نقاط قوته وإمكانيّات مواهبه.

صديقنا زيد الخير قال إنّه أعرج، وحلمه أن يصبح عدّاءً شهيرًا، وسوف يعمل على تحقيق حلمه بكلّ نشاط وعزيمة. المعلّمة نعيمة قالتْ: إنّ الأحلام تصبح حقيقة إنْ عملنا على تحقيقها.

زيد الخير في حاجة إلى تدريبات جسديّة تنمّي لياقته ليجيد العدو بسرعة أكبر، كما هو في حاجة إلى مدرّب خاصّ، أبي قام بالبحث عن مدرّب مناسب لحالته، ووجده عبر بحثه المستمرّ

في الفجوات النّورانيّة، المدرّب لم يوافق على أن يأتي إلى عالمنا؛ لأنّه مرتبط بالتزامات صارمة في عالمه وفق عقد وقّعه مع نادٍ رياضيٍّ عالميٍّ، لذلك اضطر أبي إلى أن يأخذ زيد الخير إلى عالم ذلك المدرّب كي يتلقّى التّدريب على يديه.

لمدة ستة أشهر متتالية كان زيد الخير خلالها يراسلنا عبر صفحته على موقع التّواصل الاجتماعيّ، ويرسل إلينا مقاطع فيديو تظهر تقدّمه في العدو، وفرحه الغامر بخوض تجربة التّدرب على الرّكض على يدي مدرّب دوليٍّ متخصّص.

أخيرًا حان موعد سباق (الماراثون) الدّوليّ للعدو، زيد الخير صمّم على أن يُسابق ضمن قوائم العدّائين الذين يتمتّعون بصحّة جسديّة كاملة، ورفض أن يشارك في مسابقات ذوي الإعاقات. لقد كان الوحيد من بين المتسابقين الذي يعاني من العرج في قدمه اليمنى.

طال السّباق، واستغرق وقتًا كبيرًا حتى انتهى، وأخيرًا حصل زيد الخير على المرتبة الثّانية في هذا السّباق العالميّ في العدو الطّويل، لقد أصبح أخيرًا عدّاءً عالميًّا يحمل الميدالية الفضيّة في (الماراثون) العالميّ للعدو الطّويل المسافات.

أبي قرّر أن يعطي زيد الخير مكافأة على فوزه وتميّزه؛ لذلك قرّر أن يأخذنا جميعًا في رحلة نتعرّف فيها على المزيد من الأبطال المنجزين في الحقول الرّياضيّة من ذوي الإعاقات.

حضـن أبي زيـد الخـير فرحًـا بمنجـزه والميداليـة الفضيّـة تتـدلّى مـن رقبتـه، ثـم خلـع الميداليـة الجميلـة مـن رقبتـه، وقبّلهـا بفخـر، وعلّقهـا في رقبـة أبي تعبيرًا عـن امتنانـه لـه، ثـم عانقـه بحـرارة. صفّقنـا جميعًـا فرحـين بهـذا الفـوز، وهـذه المعانقـة الحانيـة.

حـدّد أبي فجـوة نوارنيّـة قريبـة مـن ميـدان عـدو (الماراثـون)، وقفزنـا عبرهـا بحـماس وتسـابق حتـى وجدنـا أنفسـنا في محـاذاة حلبـة العـدو.

– مريم باستنكار: ماذا يحدث؟ لقد عدنا من جديد إلى المكان ذاته!

– أبي ضاحـكًا: لا، لسـنا في المـكان ذاتـه، نحـن بالقـرب مـن حلبـة عـدو في مدينـة – سـيدني في أسـتراليا في عـام 2000.

– الأطفال ببهجة: نحن في أستراليا؟

– أين تقع أستراليا؟

– المعلّمة نعيمة: إنّها تقع في جنوب الكرة الأرضيّة.

– العنزة شقراء: إنّها موطن حيوان الكنغر.

– رامز: أنا أحبّ حيوان الكنغر، تك تك تك.

– محمود: هل نستطيع أن نأخذ معنا بعض حيوانات الكنغر؟

– أبي: بالطّبـع لا نسـتطيع ذلـك؛ فهنـا الموطـن الأصـليّ لحيـوان الكنغـر، وهـو لا يسـتطيع أن يعيـش خـارج موطنـه الطّبيعـيّ.

– ماذا نفعل هنا يا أبي؟

– جئنا لنحضر مباراة أولمبياد العدو.

– هل سيشارك زيد الخير في هذه المباراة؟

– لا، إنّما ستشارك مارلا رونيان بها.

– مَن مارلا رونيان؟

– أمّـي عفـاف: إنّهـا عـدّاءة أمريكيّـة، فقـدتْ بصرهـا وهـي في التّاسـعة مـن عمرهـا، ولكنّهـا ظلّـتْ مصمّمـة عـلى أن تمـارس هوايـة العـدو التـي تحبّهـا.

– جود بفضول: وماذا حدث بعد ذلك؟

– أبي: فـازتْ ثـلاث مـرّات ببطولـة العـالم في العـدو لمسـافة 500 مـتر، ثـم حصلـتْ في عـام 1996 عـلى الميداليـة الذّهبيّـة في أولمبيـاد ذوي الإعاقـات.

– نورين: وهل ستفوز اليوم في هذه المسابقة؟

– أمّـي عفـاف: بالتّأكيـد، هـي سـتفوز بهـا، وسـتكون أوّل كفيفـة تفـوز بهـذه الميداليـة في تاريـخ هـذه اللّعبـة.

– مرحى.

– أبي: ولذلك سوف نشجّعها حتى تفوز.

– زيـد الخـير بـكلّ فخـر وثقـة: أتمنـى لـو تتـاح لي فرصـة لأجـل منازلتهـا في العدو.

– أبي: قد تتاح لكَ هذه الفرصة في المستقبل.

– زيد الخير بحماس: سأنتظر هذه الفرصة بشوق.

لقد فازت مارلا رونيان بالجائزة الأولى في أولمبياد سيدني عام 2000، وقد قدّمنا لها طاقة زهور باسْم بيت ديمة، ثم غادرنا على عجل؛ لنهبط في ساحة حلبة لعبة (الكاراتيه) في عام 1970 في الأولمبياد العالميّة للعبة (الكاراتيه) حيث المكان يعجّ بالحضور المشجّعين وطواقم الإعلام والمشاركين.

– زيد الخير: أين نحن الآن؟

– أبي: نحن في أولمبياد العالم للعبة (الكاراتيه).

– عون: من سيفوز اليوم بجائزة هذه اللّعبة؟

– المعلّمة نعيمة: سيفوز بها اللاعب المعجزة رون سكاليون.

– رامز: لحظة البداية تقترب، عقارب السّاعة تشير إلى ذلك، تك تك تك.

– هل هو من أصدقائنا يا أبي؟

– أبي: نعم، هو من أصدقائنا، تعرّض لحادث سيّارة في طفولته، فبتر الأطبّاء قدميه جرّاء ذلك.

– مسكين.

– أبي: لكنّه ظلّ يحلم بتحقيق حلمه بأن يكون بطل العالم بالكاراتيه.

– إبراهيم بدهشة: وهل استطاع أن يحقّق حلمه؟

– أبي: في البداية سخر زملاؤه منه، وأزعجوه إلى أن اضطر إلى ترك المدرسة، ومتابعة دراسته في بيته.

– زيد الخير بحزن: لقد تعرّض لما تعرّضتُ له من سخرية وتجريح.

– المعلمة نعيمة: ولكنّه صمّم على الانتصار مثلكَ تمامًا.

– أبي: فدرس في بيته بكلّ اجتهاد، وتابع تدريباته البدنيّة والنّفسيّة والعقليّة لسنوات طويلة حتى استطاع أن يفوز ببطولة منطقته للعبة (الكاراتيه).

– محمود بفضول: وماذا فعل بعد؟

– أبي: اليوم سيصبح بطل العالم في لعبة (الكاراتيه)، وسيكون أوّل رياضيٍّ من ذوي الإعاقة يفوز بهذا اللّقب على مستوى العالم.

– زيد الخير: رعاه الله من رجل شجاع صبور.

– المعلمة نعيمة: وبعد ذلك سيحصل على 8 دان للحزام الأسود في (الكاراتيه)، وسيفتح ناديًا لـ(الكاراتيه)، يدرّب فيه أكثر من 300 متدرّب معظمهم من ذوي الإعاقات بعد أن رأوا فيه مثالًا مشرِّفًا وحيًّا للنّجاح والتّحدّي والإصرار والنّجاح.

– زيد الخير: هل أنجز كلّ شيء وحده؟

– أبي: لا، بل كان والده يدعمه، ويؤمن به طوال الوقت.

– ديمة بامتنان: أنا أحبّكَ يا أبي؛ لأنّك تدعمني، وتدعم أصدقائي في بيت ديمة.

– أبي: وأنا أحبّكِ يا ديمة، حبّي لكِ جعل قلبي يتسع لكلّ ذوي الإعاقات في هذا العالم.

لقد ابتهجنا كثيرًا، ومررنا بأوقات تشجيع مثيرة تحبس الأنفاس، ونحن نتابع رون سكاليون، وهو يحرز الفوز ببطولة العالم في لعبة (الكاراتيه) لعام 1970، وأخذنا صورة جماعيّة معه، وقرّرنا أن نضعها في إطار ذهبيّ، وأن نعلّقها على جدار الإنجازات في بيت ديمة.

فيما بعد انزلقنا على عجل في الفجوة النّورانيّة لنحضر حفل تولّي فرانكلين روزفلت رئاسة دولة الولايات المتّحدة الأمريكيّة في عام 1932 بعد نضاله الطّويل مع الشّلل الذي أُصيب به في عام 1921، وقد استمتعنا بزيارة تمثال الحريّة وعالم الألعاب في إحدى المدن التّرفيهيّة الشّهيرة.

– هل سينجح فرانكلين روزفلت في قيادة دولة كبيرة المساحة وهو مصاب بالشّلل؟

– أبي: سينجح بكلّ تأكيد.

– المعلمة نعيمة: وهل سوف يكون أوّل رئيس ينجح في تولّي رئاسة الولايات المتّحدة الأمريكيّة لأربع مرّات متتالية؟

– العنزة شقراء: وسيكون كذلك أوّل رئيس أمريكيّ تُوضع صورته على طابع البريد وهو على قيد الحياة.

– مريم: وسيكون أيضًا سياسيًّا بارعًا على مستوى الدّاخل الأمريكيّ والخارج العالميّ. لقد عَرَفتُ هذه المعلومات عنه في درس التّاريخ.

خرجنا من البيت الأبيض حيث المقرّ الرّسميّ لفرانكلين روزفلت مبهورين بهذا الرّجل الأسطورة الذي قهر عجزه، وقاد شعبه. عندها أخبرنا والدي أنّه سيجعل محطّتنا الأخيرة في عالم الفنّ؛ وقد تفاجأنا بحقٍّ عندما وجدنا أنفسنا في مدينة بومباي الهنديّة نحضر عرضًا راقصًا لراقصة بارعة اسمها سودها تشاندران، لقد رقصتْ برشاقة على خشبة المسرح لمدّة ساعة متواصلة بمرافقة الأنغام الهنديّة الشّجيّة والرّاقصين والرّاقصات الهنود الذين كانوا يرقصون ببراعة متناهية الوصف، حتى ليشعر من يراهم أنّهم شخص راقص واحد قد انقسم إلى أشخاص راقصين على وقع واحد، ولكن الرّاقصة سودها تشاندران كانت أكثرهم براعة في الرّقص، وأكثرهم براعة في إتقان الحركات، وقد أبهرت الجمهور الذي هتف باسمها بعد انتهاء العرض لدقائق طويلة، ونثر بتلات الزّهور عليها.

استطعتُ وكثير من الأصدقاء أن نأخذ توقيعها على دفاتر تواقيعنا الخاصّة بالمشاهير تعبيرًا منّا عن إعجابنا الشّديد برقصها البارع.

لكـن الذّهـول ألجـم أفواهنـا عندمـا علمنـا أنّ هـذه الرّاقصـة البارعـة من ذوي الإعاقـات؛ فقـد فقـدتْ قدمهـا اليُمنـى في صغرهـا عندمـا تعرّضـتْ لحـادث أليـم، ولكنّهـا صمّمـتْ عـلى أن تنتـصر عـلى إعاقتهـا، وأصبحـتْ الرّاقصـة الرّشـيقة التـي حلمـتْ دائمًـا بـأن تكونهـا، وقـد نالـتْ شـهرة كبـيرة في عـالم الرّقـص الهنـديّ، كـما قامـتْ بالعديـد مـن الأدوار التّمثيليّـة في السّـينما والتّلفـاز الهنـديّ.

– ديمـة بحـماس وتفـاؤل: إنْ كانـت سـودها تشـاندران قـد اسـتطاعتْ أن تكـون راقصـة بارعـة عـلى الرّغـم مـن أنّهـا قـد فقـدتْ قدمهـا اليُمنـى، فهـل يعنـي ذلـك أنّنـي أسـتطيع أن أحقّـق حلمـي بـأن أكـون أمًّـا عـلى الرّغـم مـن معانـاتي مـن مـرض (متلازمـة داون)؟

– عون بثقة وحماس: طبعًا تستطيعين أن تحقّقي حلمكِ يا ديمة.

– أبي: ثقي أنّ الأحلام هي حقيقة العاملين المجتهدين.

– زيـد الخـير باعتـزاز: هـذه الرّاقصـة البارعـة اسـتطاعتْ أن تحقّـق حلمهـا، كـما اسـتطعتُ أن أحقّـق حلمـي.

– أبي: قد آن الآن موعد العودة إلى بيت ديمة يا أبنائي الأعزّاء.

– زيـد الخـير: بـل آن موعـد عـودتي إلى قبيلتـي وجـدّتي يـا دكتـور شـجاع الورديّ.

– أبي بدهشة: هل ستعود إلى قبيلة فزارة يا زيد الخير؟

– زيد الخير: نعم، أريد أن أعود إلى قبيلتي.

– أمّي عفاف بدهشة: ولكن لماذا؟!

– زيـد الخـير بـإصرار: أريـد أن أعـود إلى زمـاني، وأن أمـارس البطولـة هنـاك كـما مارسـتها هنـا، لـن أسـتطيع أن أكـون بطـلاً في الحـاضر، في حـين أنّنـي مهـزوم مطـرود مـن المـاضي. أريـد أن أرعـى جـدّتي؛ فقـد تركتُهـا وحيـدة لا تجـد مـن يرعاهـا، أو مـن يرعـى أغنامهـا.

– عون بدهشة: هل ستعود إلى الماضي فقط لأجل رعي الأغنام؟!

– رامز: هو سيرعى جدّته. تك تك تك.

– زيـد الخـير: بـل سـأقوم بأهمّ مهمّـة في حياتي؛ الإسـلام يـكاد يشرق على الدّنيـا، وموعـد بعـث محمد صـلّى عليه وسـلّم بالنّبوة قـد شـارف، وقبيلتي لن تُسْـلِم بسـهولة، وأنـا قـد وجـدتُ الخـير كلّـه في الإسـلام، وأعجبنـي موقف الإسـلام الدّاعم لـذوي الإعاقات، ولذلك سـأعود إلى قبيلتـي في انتظار البعثة النّبويّـة؛ لأكـون أوّل مـن يسـلم مـن قبيلتـي، ولتكـون جـدّتي ثـاني من يسـلم فيهـا، وسـأحرص عـلى أن أكون مـن يقـود قبيلة فـزارة نحو الإسـلام؛ لأكون البطـل في هـذا الشّـأن، سـيكون زيـد الخـير الأعرج هـو من يقـود قبيلتـه نحو النّـور والهدايـة، سـأقودهم نحو الله.

– المعلّمة نعيمة بدهشة: ألا تزال وثنيًّا حتى هذه اللّحظة يا زيد الخير؟

– زيـد الخـير: لا أزال وثنيًّـا كـما هـي قبيلتـي وسـائر القبائـل العربيّـة في الجاهليّـة قبـل أن يهـلّ نـور الإسـلام، ويـضيء الدّنيـا بسـناه، ولكنّنـي سـأعود إلى قبيلتـي، وأنتظـر نـور الإسـلام.

– أبي: يبدو أنّكَ قد وضعتَ خطّة ناجحة للخلود والانتصار على الإعاقة يا زيد الخير.

– زيد الخير: هذا من توفيق الله. وكلّ الشّكر لكَ ولمدرسة بيت ديمة التي أنقذتني من الضّلال والضّعف والخوف.

– أمّي عفاف: إذن ستكون محطّتنا قبل الأخيرة هي مضارب قبيلة فزارة قبل نحو 1435 سنة.

– زيد الخير: نعم، هذا صحيح.

عدنا جميعًا إلى الماضي لنردّ زيد الخير إلى قبيلة فزارة، كانت جدّته في انتظاره حزينة باكية، وقد فرحتْ فرحًا عظيماً بعودته، ودَعَتْنا جميعًا إلى وليمة تتكوّن من لحم الضّأن المشويّ والخبز الطّازج اللّذيذ وحليب الماعز، ورفضتْ أن نغادرها إلّا بعد أن وعدناها بزيارة أخرى تأخذنا فيها إلى واحة جميلة، شاكرين لها كرمها ولذيذ طعامها الذي نال إعجابنا جميعًا إلّا العنزة شقراء التي لا تأكل الطّعام، وتكتفي بشحن نفسها من ألياف الطّاقة الموجودة داخلها.

الصّحراء الحارّة مع لحم الضّأن والخبز الطّازج الحار أشعرتنا بالحرّ الشّديد، ولذلك قرّر أبي أن يمرّ بنا على بحر ما لنتبرّد بمائه قبل أن نعود إلى بيت ديمة، وقد اغتنم أبي وجود أوّل فجوة نورانيّة متاحة في الرّمال المتحرّكة في الصّحراء المحيطة بقبيلة فزارة كي نغادر الصّحراء، وعندما انفتحت الفجوة النّورانيّة بريح باردة

لافحة، قفزنا فيها، لنجد أنفسنا قد هبطنا على متن سفينة يقودها قبطان اسمه فرناندو ماجلان.

انبهرنا جميعًا بمنظر المحيط الذي نراه على امتداد الأفق، وعجبنا من كبر حجم السّفينة وكثرة ما تحمل من بحّارة وبضائع.

– هل أخطأنا في اختيار مكان الهبوط يا أبي؟

– لا، أنا تعمّدتُ أن أهبط بكم في هذه السّفينة لتقابلوا القبطان فرناندو ماجلان.

– ولماذا فرناندو ماجلان بالتّحديد؟

– المعلّمة نعيمة: لأنّه قبطان شهير ومغامر على الرّغم من أنه يعاني من العرج الشّديد.

– أبي: وقد استطاع أن يقوم بأشهر الرّحلات البحريّة في التّاريخ، وقام باكتشافات جغرافيّة مهمّة، ولم يسمح للإعاقة بأن تهزمه، أو تمنعه من أن يلحق حلمه، وأن يجوب بحار العالم.

– مريم بابتسامة عريضة: إذن نحن هنا لنتعلّم، لا لأجل أن نتبرّد بالماء فقط!

– أبي مبتسماً: تعدّدت الأسباب والرّحلة واحدة.

– فرناندو ماجلان ينادي بصوت خشن مرتفع: يا أطفال، تعالوا إلى هنا سريعًا لتروا كيف تُرضِع أنثى الحوت صغيرها.

طرنا إليه جميعًا لنرى أنثى الحوت وصغيرها، ولنتأمّل الملامح الصّارمة لوجه فرناندو ماجلان على الرّغم من العرج الشّديد الذي يعاني منه، وكلّ مَن حوله من رجاله يرون قوّته وذكاءه وطموحه، ولا يعيرون انتباهًا لقدمه العرجاء، في حين كان أبي يبحث عن الفجوة النورانيّة كي نعود إلى بيت ديمة.

الفصل الثَّامن

نتوءات من نور

«أعدّ ثقتي بنفسي هي القوّة الدّاعمة لي في حياتي بالإضافة إلى أفكاري الابتكاريّة وقدرتي على تخطّي الحواجز والعقبات».

رلى الحلو

المعلّم آدم

المعلّم آدم هو معلّم لغة (بريل) للمكفوفين في بيت ديمة، هو يعيش لأجل هدف واحد، وهو أن يعلّم المكفوفين الكتابة والقراءة عبر لغة (بريل) التي يتقنها ببراعة شديدة.

هو ليس كفيفًا، ولكنّه متعاطف مع كلّ من فقد نعمة البصر، ويؤمن بأنّ لغة (بريل) هي طوق النّجاة للمكفوفين كي يتواصلوا مع العلم والمعرفة والخبرة، ولذلك بذل جهودًا مضاعفة لأجل أن يعلّم طلبته المكفوفين لغة (بريل) التي يسميّها نتوءات النّور، ويقول دائمًا إنّ هذه النّتوءات الصّغيرة المظلمة تبعث النّور في عيني مَن يلمسها من المكفوفين، فيستطيع أن يقرأ الكلمات، وكأنّه مبصر يرى.

منذ أن جاء آدم إلى بيت ديمة، وهو منقطع فيه لتعليم لغة (بريل) لأطفال المدرسة من المكفوفين، هو أوّل من يحضر إلى بيت ديمة، وآخر من يغادره، جيوب بنطاله عامرة دائمًا بالحلوى والسّكاكر

يوزّعها على كلّ مَن يزور صفّه، أو يتحدّث معه في الاستراحات بين الدّروس.

هو لا يسافر معنا في رحلاتنا التّعليميّة والتّأهيليّة عبر الفجوات النّورانيّة؛ لأنّ السّفر يصيبه بالإعياء والتّقيّؤ والصّداع، ولكنّه على الرّغم من ذلك قام بتنظيم رحلة إلى فرنسا لزيارة «لويس بريل» الذي اخترع لغة خاصّة ليقرأ المكفوفون بها، ويكتبون بها.

وصلنا ظهيرة إلى فرنسا عبر فجوة نورانيّة دافئة، كان الجميع في بيت ديمة متحمسين لهذا اللّقاء، لا سيما المكفوفين منهم، وعلى رأسهم بدر ونورين ومجد وسماح التي جاءت معنا تلبية لدعوةٍ وجَّهها بدر إليها، ووافق أبوها عليها بكلّ محبّة وترحيب.

كان لويس بريل في استقبالنا، وكانتْ سماح تصفّ لبدر كلّ ما تراه، وكنتُ أتلصّص على سماح وهي تصف شكل لويس بريل وملامحه وكلامه وحركاته، وأَعجب كيف تملك هذه القدرة الخارقة على وصف كلّ ما تراه بهذه الدّقة والوضوح؛ كأنّها ترسم لوحة لوجه تطالعه منذ سنين.

– سماح تحدّث بدرًا: نحن الآن أمام لويس بريل، هو رجل وسيم رقيق الملامح، عمره في الأربعين، ذقنه دقيق، ليس له شارب، شعر رأسه قصير مجعّد، وبشرته صافية نقيّة، وعيناه مغمضتا الجفنين طوال الوقت، وابتسامته رقيقة حنونة كأنّها ابتسامة فتاة صغيرة، جسده نحيل، وهو كثير السّعال، وبادي المرض. هو الآن يشير لنا بالجلوس، ويقول جملة لا أفهم معناها.

– العنـزة شـقراء: هـو يطلـب منّـا أن ندخـل إلى مكتبـه الخـاصّ حيـث يقـوم بتطويـر طريقتـه الخاصّـة للمكفوفـين في القـراءة والكتابـة.

ندخـل جميعًـا إلى مكتبـه بفضـول ورغبـة جامحـة في التّفـرّس في أنحـاء المـكان، يخبرنـا لويـس بريـل بصـوت رقيـق جميـل أنّـه اخـترع طريقـة في القـراءة والكتابـة للمكفوفـين عـبر ابتـداع نتـوءات بـارزة مـن 1 إلى 6 نتـوءات، ليسـتطيع الكفيـف أن يقـرأ هـذه اللّغـة عـبر تمريـر أصابعـه عـلى هـذه النّتـوءات.

– المعلّـم آدم: نشـكرك يـا لويـس عـلى هـذا الاخـتراع الـذي أتـاح الفرصـة للمكفوفـين كـي يقـرأوا ويكتبـوا بحريّـة دون مسـاعدة مـن أحـد.

– لويـس بريـل بصـوت رقيـق هـادئ: هـذا كان هـدفي الأسـمى مـن هـذا الاخـتراع، فقـد كنـتُ أحلـم بـأن أسـتطيع القـراءة، وقـد وجـدتُ في معهـد المكفوفـين اليافعـين في باريـس سـتّة عـشر كتابًـا مكتوبًـا بنظـام بدائـيّ مـن النّتـوءات، وقـد قـرأتُ هـذه الكتـب جميعهـا، واكتشـفتُ أنّ هـذه الطّريقـة في الكتابـة بدائيّـة وسـيّئة، لذلـك قمـتُ بتطويرهـا، وتحاشـيتُ الوقـوع في أخطـاء النّظـام الأوّل المعتمَـد للقـراءة والكتابـة عنـد اليافعـين، وظللـتُ أطـوّر هـذا النّظـام حتـى أوصلتـه إلى شـكله النّهائـيّ الـذي ترونـه هنـا.

– بـدر: نحـن نعـرف هـذا النّظـام جيّـدًا، فنحـن قـد تعلّمنـاه في بيـت ديمـة، ونحـن نسـتخدمه في القـراءة والكتابـة، كـما نعلـم أنّـكَ مـن ابتكـر هـذا النّظـام المثـاليّ للقـراءة عنـد المكفوفـين.

– أبي: وقـد زوّدنـا مكتبـة بيـت ديمـة بعـدد كبـير مـن الكتـب المكتوبـة بهـذه اللّغـة.

– نورين: كذلك نحن نكتب واجباتنا بهذه اللّغة.

– مريم: وهناك صفحة تصدر في مجلّة بيت ديمة بهذه اللّغة.

– سـوزانا: وبعضنـا مـن غـير المكفوفـين يحـاول أن يتعلّـم هـذه اللّغـة ليوسّـع ثقافتـه ومداركـه.

– لويـس بريـل: أتمنّـى أن تعمَّـم هـذه القـراءة عـلى كلّ مـكان في العـالم كـي يسـتطيع المكفوفـون جميعًـا أن يقـرأوا، وأن يكتبـوا دون أن يعيقهـم العمـى.

– المعلّـم آدم بحـماس وفـرح: في المسـتقبل سـوف تشـيع هـذه الطّريقـة في كلّ مـكان، وسـوف تصبـح طريقـة معتمـدة لتعليـم المكفوفـين في كلّ مـكان وزمـان.

– لويس بريل بفرح: أحقًّا هذا ما سيحدث في المستقبل؟

– أبي: بكلّ تأكيد.

– لويـس بريـل: وهـل سـتكون هنـاك معاهـد تعليـم للمكفوفـين تجيـد تعليمهـم، وتحسـن معاملتهـم بـدل تلـك المعاهـد التـي تـسيء معاملـة المكفوفـين في الوقـت الرّاهـن؟

– أبي: بكلّ تأكيد.

– محمود: نحن ندرس في بيت ديمة، وهي مؤسّسة راقية ومتقدّمة لتعليم ذوي الإعاقات وتأهيلهم.

– لويس بريل بحزن: معاهد تعليم المكفوفين في زمني تسيء معاملة المكفوفين، وتعاقبهم وكأنّهم مجرمون؛ لأنّهم لا يبصرون. لقد درستُ في معهد المكفوفين اليافعين في باريس، وكانوا يسيئون معاملتي ومعاملة زملائي. لكنّني صمّمتُ على الرّغم من ذلك على أن أدرس، وأن أتفوّق، وأن أطوِّر طريقة ناجعة للكتابة والقراءة للمكفوفين.

– المعلّمة نعيمة بإعجاب وتقدير: وقد استطعتَ أن تحقّق حلمكَ.

– لويس بريل: لكن عندي الكثير من الاختراعات التي أرغب في تطويرها كي ترى النّور.

– المعلّم آدم: سوف تحقّقها بالتأكيد يا لويس.

– مريم برجاء: هل نستطيع أن نجري لقاءً معكَ لننشره في مجلّة بيت ديمة؟

– لويس بريل بفرح: بكلّ تأكيد. وأريدكم أن تكتبوا في العنوان: الإيمان هو الذي يجعل الكفيف يرى ما في القلوب والوجوه حتى ولو لم يبصرها بعينيه.

– مريم: سوف أكتب هذا الكلام في بداية نصّ المقابلة معكَ إن شاء الله.

– المعلّم آدم: وستكون هناك نسخة من هذه المقابلة مكتوبة بلغة (بريل).

– أبي: وسوف نرسل لكَ نسخة من هذا العدد من المجلّة عبر الفجوة النّورانيّة.

– لويس بريل: سوف أكون في انتظارها بكلّ تقدير.

– المعلّم آدم: وسنضع صورتكَ على غلاف العدد.

– لويس بريل: أنت أبٌ حنون يا دكتور شجاع الورديّ، أنت تذكّرني بوالدي العظيم؛ فهو مَن كان في عوني طوال الوقت، ودعمني وساعدني على الرّغم من أنّ الشّائع في وقتي كان تخلّي الآباء والأمّهات عن أبنائهم من ذوي الإعاقات، لكنّ أبي صمّم على تعليمي، وكان أوّل من صنع لي عصا لأتلمّس دربي بها، وهو كذلك من صمّم على أن أتعلّم، وأن أذهب إلى معهد المكفوفين اليافعين في باريس.

– المعلّمة نعيمة: ليت ذوي الإعاقات جميعهم يحظون بآباء وأمهات داعمين مثل أبيكَ.

– ديمة بفخر: أنا محظوظة بأبي الحنون وأمّي عفاف العظيمة التي عادتْ من الجنّة لأجل أن ترعاني.

– المعلّم آدم: كلّنا في بيت ديمة محظوظون بأبيكِ صاحب القلب الكبير الذي يهبنا المحبّة دون توقّف.

– رامز: قلبه يقرع مثل السّاعة. تك تك تك.

يضحك الجميع، ويضحك لويس بريل الذي يعلو صوت سعاله، ويقطع ضحكه، يقول معلّمنا آدم إنّ علينا أن نودّع لويس بريل، وأن نتركه ليرتاح فمن الواضح أنّه مريض جدًّا. نوافق على المغادرة على مضض، فلا أحد يملّ من الحديث مع لويس بريل الذي يصمّم على أن يودّعنا بمقطوعة موسيقيّة يعزفها لنا على كمانه؛ فهو يعشق الموسيقى.

عدنا إلى بيت ديمة مباشرة بعد أن فرغنا من الاستماع لعزف لويس بريل على كمانه، كان عزفه شجيًّا حزينًا، وكأنّه يعزف على أوتار قلب حزين، عقدنا النّية على زيارة لويس بريل في القريب كي نسمع المزيد من موسيقاه، أومأ معلّمنا آدم برأسه بالموافقة، وشرد بتفكيره حزينًا.

لقد قرأتُ ما يدور في داخله، وعرفتُ أنّ لويس بريل سوف يموت بعد مدّة وجيزة من زيارتنا له بسبب الأمراض التي تهاجمه منذ كان صغيرًا، وذلك قبل أن يبلغ عمره الـ43 سنة، وسيترك هديّة خالدة للمكفوفين في كلّ زمان ومكان، وهي لغته الخاصّة في القراءة والكتابة.

حزنتُ بعمق لأنّ لويس بريل سيموت في القريب، ولن يقرأ المقابلة التي أجرتها مريم معه، وستنشرها في العدد المقبل من مجلّة بيت ديمة، لكنّني لم أُخبر أحدًا بهذا الأمر كي لا أفسد عليهم فرحتهم بالآلة الطّابعة التي أهداها لويس بريل لبيت ديمة كي نستخدمها في كتابة مواد المجلّة.

***

جلال المبتسم

ليس لويس بريل فقط من سيموت في القريب، بل صديقنا جلال المبتسم سوف يموت في القريب كذلك، هذا ما قاله الأطبّاء عن حالته، هو يعاني من مرض (متلازمة داون) كما أعاني منه، ولكنّه يعاني من تعقيدات صحيّة كثيرة مرافقة لهذا المرض، وأهمّها مشاكل صحيّة خطيرة في قلبه، لقد حصل على عناية صحيّة جيّدة منذ كان صغيرًا، ولكن على الرّغم من ذلك لم تتحسّن صحّته، وظلّ قلبه يضعف حتى وصل في أيّامه الأخيرة إلى مرحلة لا يستطيع معها السّير على قدميه، ولزم الكرسي المتحرّك كي لا يجهد قلبه الذي ما عاد يستطيع أن يقوم بوظائفه الحيويّة كما يجب، ولكنّه ظلّ على الرّغم من ذلك مبتسماً كعادته مهما كان حزينًا أو يعاني من ألم الأمراض التي أصابته.

كنتُ أعتقد أنّ الأمر سيتوقّف عند هذا الحدّ، ولكنّني اكتشفتُ أنّ طبيبه المعالج قد تنبّأ له بعدم القدرة على الاستمرار في الحياة لأكثر من أيّام معدودة؛ فقلبه يكاد يتوقّف عن الوجيب في أيّ لحظة.

لقد عرفتُ هذا الأمر عندما قرأته في أعماق نفس والدي الذي كان يتكتّم على الأمر، ويحرص على إسعاد جلال في أيّامه الأخيرة مهما كلّفه الأمر.

***

اسمي جلال، وأحيانًا يخونني لساني، فأعجز عن لفظ اسمي كما

يجب، فألفظه دلال. أنا مصاب بمرض (متلازمة داون)، قلبي مختلف عن قلوب كثير من البشر؛ فهو قلب كبير حنون، يحبّ النّاس أجمعين، ويحبّ كذلك الحيوانات لا سيما قطّتي الجميلة ميمي، ولكنّه على الرّغم من ذلك عاجز عن أن يقوم بوظائفه الحيويّة كما يجب كي أظلّ على قيد الحياة.

أمّا شكلي فهو يشبه شكل معظم المصابين بـ(متلازمة داون)؛ فذقني صغير، وهناك ميلان عرضيّ في شق عيني مع وجود جلد زائد في الزّاوية الدّاخليّة منهما، وهناك بقع بيضاء في القزحيّة، وعندي ضعف في سائر عضلاتي، وتسطّح في جسر الأنف، وأملكُ طيّة واحدة في راحة كفّي، وأعاني من قصر في رقبتي، وصغر في تجويف فمي، وتراخٍ في مفاصلي.

وأنا مثل سائر أصدقائي المصابين بـ(متلازمة داون) مصاب بعدّة تعقيدات صحيّة؛ فعندي مشكلة في الغدّة الدّرقيّة، ومشاكل في السّمع، فضلاً عن صعوبة في اللّفظ، وضعف في الحركة بسبب ضعف عضلاتي ومفاصلي، ولكنّني أعاني بشكل خاص من مشاكل في قلبي جعلتني أعجز أخيرًا عن المشي والرّكض الذّي أحبّه لا سيما عندما ألعب مع أصدقائي الذين أحبّهم جدًّا.

لكنّني أمتاز بذكاء نسبيّ مقارنة بسائر زملائي في المرض ذاته. المعلّمة نعيمة تقول إنّني أذكى مَن قابلَتْ من المصابين بمرضي، وتقول إنّ إدراكي لكثير من الأمور متقدّم، ولكنّني على الرّغم من

ذلك أجد صعوبات كثيرة في فهم ما يدور حولي من أشياء، وأجد صعوبة في مجاراة الكثير من أصدقائي في بيت ديمة؛ فمثلاً أعجز عن فهم ما تقوله مريم من كلام مثقّف، وكذلك لا أستطيع أن أصلح السّاعات كما يصلحها رامز بمهارة واضحة، كذلك لا أفهم معظم الحوارات التي تدور بين سوزانا وجود، أو بين جميل وعون وإبراهيم، وأخطئ في حركات الإشارة عندما أريد أن أكلّم رفقة، كذلك عجزتُ عن أن أتعلّم لغة (بريل).

لكنّني على الرّغم من ذلك أجيد الزّراعة في حديقة بيت ديمة، وأجيد كذلك رعاية زملائي الصّغار من مرضى (متلازمة داون)، وأدفع الكرسي المتحرّك لمريم دون تعب، وآخذها في نزهات جميلة في حديقة بيت ديمة، وأحفظ بعض الآيات القرآنيّة القصيرة وبعض الأحاديث الشّريفة، وأحفظ قصيدة جميلة عن البرّ بالوالدين.

أمّي تلقّبني بـ«صغيري الذّكي»، وإخوتي يلقّبونني بـ«ملاكنا الجميل»، ولكن أبي لطالما رفضني، وابتعد عنّي، حتى إنّه طلّق أمّي عندما أنجبتني، وهجرنا جميعًا كي لا يراني، فقامتْ أمّي الحنون بتربيتي وإخوتي دون مساعد أو معين أو معيل، ولكنّها على الرّغم من ذلك ظلّت فَرِحة سعيدة بي، وظلّت تعُدُّني مفتاح فألها؛ وتقول إنّها بسببي قد استقلّتْ في حياتها، وحصلتْ على شهادة جامعيّة، وعملتْ في وظيفة حقّقت وجودها بها.

أحبّ المعلّم آدم كثيرًا؛ فهو طيّب القلب، ويحبّ الجميع، ويساعدهم كذلك. لستُ ذكيًّا كما هم الأطفال الطّبيعيّون، ولكنّني أستطيع أن أدرك أنّ المعلّم آدم يرغب في الزّواج بأمّي، ويتمنّى أن يكون إلى جانبها طوال الوقت، وأنا أتمنّى أن يصبح أبي الجديد؛ فهو يحبّني، ويشجّعني، ويفتخر بي، إنّه الأبُ الذي أحلم بأن أكون ابنه.

لكن المعلّم آدم يلزم الصّمت أمام أمّي، ولا يخبرها بحقيقة مشاعره ورغبته في الزّواج منها، وأظلّ أنتظر أن يتكلّم معها في يوم ما، وأن يطلب الزّواج بها، ليظلّ إلى جانبنا جميعًا حتى الأبد.

أمّي تعمل الآن معلّمة في بيت ديمة؛ فقد تخصّصت في الجامعة بتعليم ذوي الإعاقات لكي تعلّمني وتعلّم أمثالي من الأطفال، أنا فخور لأنّني ابن المعلّمة زينب؛ فهي تقدّم العون لكلّ من يحتاج إليه، وتحبّ النّاس أجمعين، وأسعد لأنّها تعمل بالقرب من المعلّم آدم، وأتمنّى من أعماق قلبي المريض أن يملك أحدهما الجرأة ليعترف للآخر بمشاعره تجاهه.

لا أستطيع أن أعبّر لأمّي عن مدى حبّي لها، فأنا كما ذكرتُ سالفًا أعاني من مشكلة في تكوين الجمل، ونقل الأفكار إلى كلمات، كما أعجز عن فهم كثير من التّصرّفات حولي، ولكنّني عندما أقطف زهرة في كلّ صباح، وأضعها على مخدّة أمّي في انتظار أن تستيقظ من نومها، أعلم أنّها تعرف عندها كم أحبّها.

أحبّ قطّتي ميمي كثيرًا؛ فهي ترافقني ليل نهار، وتنام في حضني معظم

الوقت، وأتمنّى لو أنّها كانت تستطيع الكلام مثل العنزة شقراء، كما أحبّ أصدقائي جميلًا وعونًا وإبراهيم وديمة حبًّا جمًّا؛ فهم يفهمون ما أريد قوله أكثر ممّا يفهمه أيّ أحد غيرهم، ويسمحون لي بأن أكون أوّل من يتحدّث منهم في حديثنا مع الأصدقاء، ويجلبون لي بعضًا من الحلوى التي يحصلون عليها، ويجلسون إلى جانبي في حصص الرّسم.

لكنّني أسوأ منهم صحّة، والآن أصبحتُ لا أستطيع المشي بسبب المشكلة الكبيرة التي يعاني قلبي منها، لكن هذا لا يمنعني من الحضور إلى المدرسة، وقضاء أوقات جميلة فيها مع أصدقائي. لا أريد أن أموت، وأن أترك أصدقائي وحدهم في الحياة، لا أريد أن أترك أمّي وإخوتي، لا أريد أن تتزوّج ديمة بعون عندما يكبران وأن ينجبا طفلًا جميلًا دون أن أحضر حفل زفافهما.

أستطيع أن أظلّ طوال عمري جالسًا في الكرسيّ المتحرّك، ولكنّني لا أريد أن أموت، وأن أذهب وحدي إلى عالم مجهول. لقد حدّثتني أمّي عن عالم الموت، ولكنّني لم أفهم تمامًا ماذا يكون الموت، لعلّه نوم طويل.

***

الرَّسم بالألم

كلّما نظرتُ في أعماق نفس جلال، وقرأتُ كلماته، شعرتُ بحزن كبير، وبضيق في أنفاسي، وضعف في جسدي، وبكيتُ بحرقة؛ لأنّه صديق طيّب، لا يستحقّ الحزن والألم.

أعلم تمامًا أنّه سيرحل في القريب عن هذا العالم، وأعلم لماذا وافق والدي على أن نحضر حفل افتتاح معرض رسومات صديقه الصّينيّ «هوانغ فو» الذي تعرّف عليه جلال في إحدى رحلاتنا عبر الفجوات الضّوئيّة، وظلّ يراسله عبر بريده الإلكترونيّ.

ما كان أبي ليوافق على هذا السّفر ونحن في فترة الامتحانات الفصليّة النّهائيّة، ولكنّني أعلم تمامًا أنّه وافق على ذلك لأنّه يريد أن يحقّق كلّ شيء يطلبه جلال قبل أن يرحل عن هذا العالم، ولذلك تمّ تأجيل امتحانات هذا الأسبوع إلى الأسبوع القادم، وأُعلن عن رحلة إلى الصّين لحضور افتتاح معرض رسومات هوانغ فو، وقد قرّرَت المعلّمة زينب أن ترافقنا في هذه الرّحلة مع المعلّمة نعيمة؛ لأنّها تريد أن تكون مع ابنها جلال الذي سيسافر وهو في أشدّ حالاته المرضيّة سوءًا، كما قرّر المعلّم آدم أن يرافقنا في هذه الرّحلة -على غير عادته- ليكون إلى جانب المعلّمة زينب.

وفي اليوم التّالي المحدّد للسّفر دخلنا جميعًا برفقة أبي إلى الغرفة السّريّة في بيت ديمة، حيث قفز هو أوّلًا في الفجوة النّورانيّة، بعد أن أَمرَنا أن نقفز بعده، فقفزتْ معلمتنا نعيمة بعده مباشرة، ثم تبعها المعلّم آدم الذي يدفع الكرسيّ المتحرّك الذي يجلس جلال عليه، ويُجلِس قطّته ميمي في حضنه، وإلى جانبه أمّه المعلّمة زينب، ثم قفزنا جميعًا في الفجوة النّورانيّة حتى هبطنا في مدينة تشونغتشينغ الصّينيّة، ووجدنا أنفسنا أمام شريط ورديّ لامع يمتدّ على امتداد

بوابة معرض الرّسومات الفنّيّة، تقدّمتنا عنزتي شقراء التي تدرك أهمّيّة دورها الفاعل في التّرجمة عندما نكون في زيارة إلى بلدان لا يتحدّث أهلها اللّغة العربيّة.

كان الرّسام الصّينيّ هوانغ فو يقف إلى جانب شخص أنيق يلبس بذلة رماديّة، ويبتسم لعدسات كاميرات التّصوير، لعلّه مسؤول ما، أو فنّان مشهور. بشكل استعراضيّ جميل قطع الشّخص الأنيق ذو البذلة الرّسميّة الشّريط الورديّ بمقصّ صغير لامع، وانخرط الموجودون في تصفيق طويل حارّ.

كنتُ وأصدقائي من أشدّ المصفّقين حرارة وفرحًا بصديقنا هوانغ فو، وقد استعرضنا اللّوحات مع المستعرضين لها، ثم توزّعنا على أنحاء المعرض يتأمّل كلٌّ منّا لوحةً ما تعجبه، وكانت المفاجأة عندما أعلن هوانغ فو عن اللّوحة الكبيرة التي رسمها، كانت مغطّاة بستار أبيض سميك، تجمهر الموجودون ليروا اللّوحة، أعلن هوانغ فو أنّ اللّوحة تحمل اسم بيت ديمة، لفظها كما هي باللّغة العربيّة بصعوبة ظاهرة، ثم ترجم اسمها إلى لغته الصّينيّة، وعندما كشف الغطاء رأى الجميع لوحة عملاقة فيها تصوير لمدرسة بيت ديمة، لقد رسم كلّ الأصدقاء الموجودين في البيت، كما رسم المعلّمات والمعلّم آدم، ورسم أبي يحمل مشعلًا يضيء الدّرب نحو طريق ضيّق يمتدّ نحو السّماء حيث الغيوم والطّيور المحلِّقة في البعيد، كما رسم أمّي بثوبها الأبيض الملائكيّ، وهي تحضنني.

لقد كانت لوحة تنبض بالسّعادة والفرح، في حين ركّز هوانغ فو على رسم ملامحنا وابتساماتنا ونظرات عيوننا، ولكنّه لم يركّز كثيرًا على إبراز مواطن النّقص في أجسادنا.

أُعجب الجميع بهذه اللّوحة، وعرض الكثير من الحاضرين أن يشتروها من صديقنا الرّسام بأموال طائلة، ولكنّه رفض أن يبيعها لأيّ منهم، وأعلن أنّها هديّة تذكاريّة لبيت ديمة، وقدّمها رسميًّا لأبي بوصفه مالك بيت ديمة ومديره، فقبل أبي هديّته الثّمينة بكلّ فرح وسرور، وربتْ على كتفه، وضمّه إلى صدره؛ إذ لا يملك هوانغ فو يدين ليصافحه بهما.

لقد وُلد هوانغ فو طبيعيًّا كامل الأعضاء والصّحة، ولكنّه تعرّض في صغره لحادث بصعقة كهربائيّة، فقد يديه بسببه، ولكنّه لم ييأس، وبدأ في الثّانية عشرة من عمره يمارس هوايته المفضّلة، وهي الرّسم، وقد استخدم قدمه اليُمنى للرّسم على الرّغم من فقره وفقر أبيه الذي لم يستطع أن يؤمّن له التّعليم المناسب أو التّدريب الاحترافيّ عند جهات متخصّصة، كما أنّه لم يستطع أن يوفّر له أدوات الرّسم والتّلوين، وبعد عشرة أعوام من ممارسته لهوايته والتّدرّب عليها أصبح محترف رسم يجوب الشّارع الصّينيّ، ويرسم تفاصيله بقدمه اليُمنى، ويبيع لوحاته، ويعيش من ثمنها حياة كريمة دون أن يشعر بنقص أو عجز أو حزن من الحالة التي يعاني منها.

لقد عرّفنا أبي على هذا الصّديق المبدع في رحلات سابقة كي نتعلّم منه معنى الحياة والعمل والإصرار، فأصبح صديقًا عزيزًا علينا، ولكنّه كان على صداقة وثيقة مع جلال، وكان يدعوه ويدعونا لحضور افتتاح كلّ معرض يقيمه، وكنّا دائمًا نلبّي دعواته المفرحة لنا.

لقد شعر أبي بالامتنان لهديّته الجميلة، ولذلك أراد أن يردّ هديته بهدية تفرح قلبه، فعرض عليه أن يأخذه في جولة يختار وجهتها، فقبل هوانغ فو هذه الهديّة سعيدًا، واقترح أن تكون رحلته إلى بعض كبار الفنّانين الذين يحبّ رسوماتهم، ودعا زوجته «جين تاو» إلى أن ترافقنا في هذه الرّحلة، وكان حديث الزّواج بها، فقد قابلها في الشّارع وهو يرسم، وسرعان ما جمع الحبّ بين قلبيهما، فتزوّجا، وهي الآن تساعده في تحضير القماش والأدوات التي يحتاجها للرّسم.

انفتحت الفجوة النّورانيّة بريحها الباردة لتلفح وجوهنا وأجسادنا، فقفزنا فيها واحدًا تلو الآخر حتى هبطنا في ضاحية كويوكان في المكسيك، ووجدنا أنفسنا في بيت مكسيكيٍّ جميل يعجّ باللّوحات الزّيتيّة الجميلة، وكانت في استقبالنا في غرفة الضّيوف امرأة في آخر الأربعين من عمرها، وهي مستلقية على ظهرها لا تتحرّك، وزوجها الذي يكبرها سنًّا جالس بالقرب منها، تقدّمتنا عنزتي شقراء كعادتها، وبدأتْ تترجم الحوارات التي تدور بين الحاضرين بأكثر من لغة.

لقد عرفنا أنّنا في ضيافة الرّسامة المكسيكيّة الشّهيرة «فريدا كاهلو»،

لقد كانتْ تلزم سريرها لإصابتها منذ زمن طويل بمرض الحبل الشّوكيّ الذي أصاب ظهرها وقدمها بالعجز، ومنعها من الحركة أو السّير، لكنّها استمرّتْ -على الرّغم من مرضها- برسم اللّوحات الجميلة التي تمثّل ألمها وحزنها ومرضها، لتصبح بعد ذلك واحدة من أشهر الرّسامات في العالم.

لقد عرضتْ فريدا كاهلو الكثير من لوحاتها علينا، فشعرنا بسعادة غامرة وهي تشرح لنا رموز هذه اللّوحات ومغازيها، كانتْ تشرح لنا ذلك بشكل مبسّط وسهل الفهم، وقد حدّثها هوانغ فو عن لوحته التي رسمها بعنوان بيت ديمة، ثم عرضها عليها؛ إذ كنّا قد أحضرناها معنا، فأبدتْ إعجابها الشّديد بها، وانهالتْ على أبي بعشرات الأسئلة عن بيت ديمة، ثم أخذتْ تلقي التّحيّة على كلّ واحد منّا، وتسأله عن اسمه وعن هواياته، وأعجِبتْ كثيرًا بميمي قطّة جلال ذات الفراء الأحمر النّاعم الجميل.

لقد دعتنا فريدا كاهلو لنأكل فطائر ميني تاكو والتورتيلا المكسيكيّة اللّذيذة، ودعتنا لنقضي بعض الأيّام في ضيافتها، لكنّنا أجّلنا قبولنا لدعوتها الكريمة إلى وقت آخر يناسب الجميع. وعندما هممنا بالرّحيل ابتسمتْ فريدا كاهلو لنا، وقالتْ: أحبّتي، حوِّلوا آلامكم وأحزانكم إلى إبداع وعمل وجمال؛ هكذا تكون الحياة أجمل.

غادرنا المكسيك، ونحن نحلم بأن نعود إليها لزيارة أهراماتها التّاريخيّة، ثم توجّهنا إلى أمستردام حيث قابلنا الرّسام الشّهير فنسنت

فان جوخ، كانت صحّته على غير ما يرام؛ فقد كان يعاني من مرض الصّرع ومن اضطرابات نفسيّة، وكان يتردّد على المصحّات النّفسيّة للعلاج، لكنّه كان مستمرًّا في ممارسة هوايته التي يحبّها، وهي الرّسم، ويرفض أن يؤثّر مرضه في إبداعه، وقد سمح لنا بأن نستعرض بعضًا من لوحاته التي قال لنا أبي إنّها ستساوي ثروة طائلة في المستقبل، وستتنافس أكبر متاحف العالم على اقتنائها، وقد أدهشتنا لوحاته الجميلة بألوانها الفرحة، لا سيما لوحة (القزحيّات)، ولوحة (ليلة النّجوم)، ولوحة (عبّاد الشّمس).

غادرنا بيت فنسنت فان جوخ سريعًا بناء على رغبة زوجته التي أرادت الرّاحة لزوجها المريض، وتوجّهنا مباشرة إلى فرنسا، حيث هبطنا في مرسم الرّسام الفرنسيّ الشّهير أوغست رينوار الذي رسم آلاف اللّوحات التي باعها في شتّى أنحاء العالم.

تفاجأنا عندما وجدناه مصابًا بداء الرّوماتيزم الشّديد الذي يمنعه من أن يمسك الرّيشة بيديه، ولذلك كان يربطها بأصابعه كي يستطيع الرّسم بها، تحدّث معنا لبعض الوقت، وتحدّث مع هوانغ فو طويلاً حول الرّسم ومدارسه والتّجديدات فيه، لم نفهم أيّ كلمة ممّا قالا، ووجدتْ عنزتي شقراء صعوبة في ترجمة حوارهما لما فيه من مصطلحات فنيّة صعبة التّرجمة.

انشغلنا مع أبي ومع المعلمة نعيمة التي شرحتْ لنا دلالات بعض اللّوحات الموجودة في المرسم، وهي: لوحة (فتيات أمام

البيانـو)، ولوحـة (غابرييـل صاحبـة الـوردة)، ولوحـة (المسـتحمّات)، وذكـرت لنـا أنّ هـذه اللوحـات ستسـاوي مبالـغ نقديّـة كبـيرة في المسـتقبل، وأنّ أثـرى النّـاس في العـالم هـم فقـط مـن سيسـتطيعون أن يقتنوهـا، وكان جـلال كعادتـه مبتسـماً سـعيدًا يهـزّ رأسـه برضـا، ويخفـي ألمـه، ويتابـع مـا يجـري حولـه صامتًـا، وكانـت أمّـه المعلّمـة زينـب تراقبـه بحـزن وصمـت.

بعـد أن شربنـا عصـير الطّماطـم الـذي قُـدّم لنـا بسـخاء، ودّعنـا الرّسـام أوغسـت رينـوار الـذي ابتسـم لنـا ابتسـامة عريضـة، وقـال: عليكـم أن تسـعدوا في الحيـاة؛ فهـي قصـيرة يـا أبنائـي.

انتهـت جولتنـا مـع صديقنـا الرّسـام الصّينـي هوانـغ فـو الـذي أعدنـاه إلى مدينتـه، وشـكرناه لأنّـه أخذنـا إلى عـوالم الرّسـم والإبـداع والألـوان، ثـم انزلقنـا في الفجـوة النّورانيّـة عائديـن إلى بيـت ديمـة فرحـين بهـذه الرّحلـة الممتعـة، ونحـن نحمـل بفخـر لوحـة هوانـغ فـو التـي أهداهـا لنـا.

***

قـرّر أبي أن يعلّـق لوحـة بيـت ديمـة في حفـل خـاصّ يقيمـه لنـا بعـد أن ننتهـي مـن تقديـم الامتحانـات الفصليّـة، واتّفقنـا جميعًـا عـلى أن نُثبِّـت اللّوحـة في البهـو الكبـير كـي يراهـا الجميـع، وكان جـلال أكثرنـا حماسًـا لهـذا الحفـل؛ لأنّ هـذه اللّوحـة هـي هديـة مـن صديقـه الشّـخصيّ، وكان منـذ أيّـام يعـدّ كلمـة قصـيرة ليقولهـا في حفـل تدشـين اللّوحـة، وقـد طلـب مـن والدتـه المعلّمـة زينـب أن تكتـب لـه هـذه الكلمـة، في حـين قـام المعلّـم

آدم بتدريبـه عـلى إلقائهـا، وقـد بـذل جهـودًا مضنيـة كـي يتقـن قـراءة هـذه الكلمـة التـي تكوّنـت مـن جمـل قليلـة.

وقـد عرضـت الإعلاميّـة اللبنانيّـة رلى الحلـو أن تقـوم بتغطيـة فعاليّـة تدشـين اللّوحـة عـبر تغطيـة تلفزيونيّـة في برنامجهـا الشّـهير (لسـنا مختلفـين) الـذي تعـرض فيـه قصـص نجـاح لأشـخاص مـن ذوي الإعاقـات صمّمـوا عـلى أن يتحـدّوا إعاقاتهـم، وأن ينتـصروا عليهـا، وقـد خصّصـت حلقـة مـن برنامجهـا لتكـون عـن بيـت ديمـة.

وافـق أبي عـلى هـذا العـرض الـذي وجـده فرصـة لنـا كـي يصلنـا بالمجتمـع المحيـط دون خـوف أو شـعور بالخجـل والانطـواء.

وجـاء اليـوم الموعـود لحفـل تدشـين اللّوحـة، واصطففنـا مبتهجـين ننتظـر قـدوم رلى الحلـو وطاقـم برنامجهـا التّلفزيـونيّ الشّـهير بعـد أن لبسـنا أجمـل الملابـس. ولم يطـل الانتظـار حتـى قابلنـا رلى الحلـو وجهًـا لوجـه، لقـد كانـت مثلنـا مـن ذوي الإعاقـات، فقـد كانـت مشـلولة، وتتحـرّك بواسـطة كـرسي متحـرّك، ولكنّهـا عـلى الرّغـم مـن ذلـك كانـت ممتلئـة فرحًـا وسـعادة ونشـاطًا.

حدّثتنـا رلى الحلـو عـن برنامجهـا بفخـر، ثـم رتّبـتْ جلوسـنا وفـق احتياجـات الكاميـرا ونصائـح مخرجـة البرنامـج التـي جـاءت معهـا، بعـد أن نُصبـتْ كاميـرات التّصويـر في الأماكـن المناسـبة لهـا.

وانتهـت الاسـتعدادات لتصويـر الحلقـة، ومـا كان غائبًـا عـن المـكان سـوى جـلال الـذي كنّـا ننتظـره كـي يشـاركنا في البرنامـج، ويقـول كلمتـه

التـي يتـدرّب عـلى إلقائهـا منـذ أكثـر مـن أسـبوع، الجميـع كان في انتظـار قدومـه.

تأخّـر جـلال، ولم يحـضرْ موعـد تصويـر البرنامـج، ثـم جـاء المعلّـم آدم باكيًـا يمسـح دموعـه الغزيـرة، وأخـبر أبي أنّ جـلالًا لا يسـتطيع أن يـأتي ليشـارك في حلقـة برنامـج (لسـنا مختلفـين)؛ لأنـه فـارق الحيـاة منـذ لحظـات معـدودة.

الفصل التَّاسع

المقعد الرَّماديُّ

«قبـل تشـخيص حالتـي المرضيّـة كنـتُ أشـعرُ بالملـل الشّـديد مـن حيـاتي، ولم يكـن هنـاك شيء جديـر بـأن أفعلـه. أعتقـد أنّنـي أكـثر سـعادة الآن».

ستيفن هوكينغ

الزّائر المجهول

لقد رحل جلال عن الدّنيا باسمًا كما عاش فيها دائمًا، قالتْ أمّه إنّه كان يكرّر كلمته التي حفظها عندما غرق في صمتْ أزليّ، وفارقتْ روحه جسده، وهو يجلس على كرسيه المتحرّك مرتديًا بذلته الجديدة، وواضعًا زهرة في ياقة سترته، وقطّته ميمي تنام في حضنه كعادتها.

لم يمهل الموت جلالًا كي يكبر، ويحضر حفل زواجي من عون، ويحمل طفلي الصّغير المنتظر.

خيّم الحزن علينا في بيت ديمة بعد موت جلال، وشعرتُ أنّني أقرب الموجودين إلى الموت؛ فأنا أعاني كذلك من مرض (متلازمة داون)، وكنتُ قد وُلدتُ بثقب في قلبي. الآن أخشى أن أموت بداء القلب كما مات جلال به، فعلى الرّغم من أنّ عمليّة ناجحة قد أُجريتْ لي في طفولتي لأجل إغلاق الثّقب القلبيّ الذي وُلدت به، وعلى الرّغم من أنّ صحتي على خير ما يرام، فإنّني أرى الموت قريبًا

مني، وأنا أخشاه، كما أخشى أن يقترب من عون، ويخطفه منّي. أنا أكره الموت، ولا أستطيع أن أفهمه أبدًا.

كلّنا في بيت ديمة حزانى نفتقد جلالًا، ونبحث عن ابتسامته الطّاهرة، فلا نجدها، ولكن مريم هي أكثر من تأذّت من موته؛ فقد كان جلال بمثابة القدمين والرّجلين لها قبل أن يشتدّ مرضه، ويقعده في كرسي متحرّك؛ إذ كان يدفع كرسيها طوال وجودهما في بيت ديمة، كما كان يدفعه في رحلاتنا الزّمنيّة عبر الفجوات النّورانيّة، وكان مساعدها التّنفيذيّ في إصدار مجلّة بيت ديمة؛ فهو من كان يتحرّك، ويأتي، ويذهب، ويعود، ويحمل ما يتوجّب حمله، وهو من كان يسعى في تنفيذ كلّ شيء يحتاج إلى فعل جسديّ، وإنّما كانت مريم هي العقل المدبّر للمجلّة، وهو كان الجسد المطيع النّشط، فهي كانت مشلولة اليدين والرّجلين، وهو كان رجليها ويديها، برحيله بدأتْ مريم تشعر بأنّها عاجزة لا حول ولا قوّة لها، ولذلك أضربتْ عن الطّعام لأيّام طويلة، وكادتْ تموت جوعًا وحزنًا وإعياء لولا تدخّل أبي والمعلّمات والأصدقاء وأسرتها لأجل إقناعها بالأكل كي لا تموت جوعًا.

وما عادتْ إلى العمل إلّا عندما كلّفها أبي بمهمّة إصدار عدد خاصّ من مجلّة بيت ديمة يتحدّث عن جلال، وعن رحيله، وعن دوره الكبير في مساعدة أصدقائه في بيت ديمة. وقد صدر العدد فعلًا في مدّة وجيزة تتصدّر غلافه صورة وجه جلال بابتسامته العريضة الحنونة.

***

اسمي مريم، عمري ستة عشر عامًا، وبذلك أكون أكبر الطّلبة سنًّا في مدرسة بيت ديمة، وُلدتُ مصابة بالشّلل الرّباعيّ، كنتُ عاجزة عن كلّ شيء حتى جئتُ إلى بيت ديمة، واكتشفتُ أنّ القوّة الحقيقة تكمن في العقل والرّوح والقلب، لا في الجسد فقط، وبدأت أتعلّم ممارسة حياتي دون رجلين أو يدين، الأمر ليس سهلًا، ولكنّه ليس مستحيلًا، لقد طَوَّرتُ الكثير من مهاراتي لأجل التّعامل مع وضعي، ولكنّ جلالًا أصبح فيما بعد هو يدي ورجلي؛ فقد كان مطيعًا لي في كلّ شيء، وكان يتعامل معي بحنان شديد، كأنّني قطّته ميمي، كان أبي وأخي وصديقي على الرّغم من أنّه أصغر سنًّا منّي، ولا يستطيع أن يستوعب الكثير من الكلام الذي أقوله، ولكنّه كان يتعامل معي بذكاء قلبه الذي كان عبقريّ الفهم والإدراك.

من الصّعب أن يفهم إنسان بكامل أعضائه وجوارحه شعور طفلة مثلي لا تملك يدين أو رجلين، هو شعور محبِط يائس يشبه أن يُلقى بك في بحر مقيّد اليدين والقدمين لتغرق، وتهوي إلى القاع.

دائماً أشكر الله على فضله عليّ، كما أشكره على فضله على كلّ طفل أعطاه يدين ورجلين ليتحرّك، ويفعل كلّ ما يشاء دون عجز أو حاجة إلى مساعدة بشر، ويتصرّف بهما كيفما يشاء.

الحياة بجِذْع دون أطراف صعبة جدًّا، ولكنّها تصبح دون أمل عندما يرحل أصدقاؤنا الذين نحبّهم، ويدعموننا، ويساعدوننا.

***

كنتُ أطيلُ التّأمّل في نفس مريم، وهي ترقد في المستشفى مريضة حزنًا على موت جلال، وأقرأ حديثها لنفسها، فأصاب بالحزن الشّديد عليها، لقد عادتْ مريم إلى الحزن والإضراب عن الطّعام حتى ساءتْ صحّتها، وداهمها الإغماء أكثر من مرّة، فأدخلها أبي المستشفى لتنال المزيد من الرّعاية الصّحيّة والنّفسيّة.

كنّا نتناوب جميعًا على زيارتها والعناية بها إلى جانب عناية أسرتها بها، ولكنّ صحّتها استمرّتْ في التّدهور، وأضربتْ عن الكلام، كما أضربتْ عن الطّعام من قبل، وبدأنا نخشى أن تموت هي أيضًا من شدّة الجوع والحزن والإعياء.

ولكن والدي صمّم على أن يساعدها، وأن ينقذها من حزنها مهما كلّفه الأمر، فذهب في رحلة طارئة برفقة المعلّمة نعيمة إلى مدن بعيدة، وعاد ومعه رجل مشلول الأطراف، دخلا برفقته إلى غرفة مريم التي كانتْ غارقة في صمت رهيب طويل، وما كادتْ ترى مريم الرّجل الزّائر حتى انتفض جذعها دهشة، وقالتْ بانفعال: دكتور ستيفن هوكينغ! ماذا تفعل هنا؟!

ردّ ستيفن هوكينغ عبر ناطق إلكترونيٍّ متّصل بحاسوبه الخاص المثبَّت بكرسيه المتحرّك: جئتُ من مدينتي كي أزورك بمقعدي الرّماديّ هذا؛ لتعرفي أنّكِ لستِ الوحيدة في هذا العالم العاجزة عن الحركة.

– مريم بحماس: أنا أعرفكَ جيدًا، أنتَ أشهر عالم فيزياء نظريّة في التّاريخ على الرّغم من أنّك تعاني من سلسلة معقّدة من الإعاقات!

– أبي: إنّه يشغل كرسيّ العالم الشّهير نيوتن في جامعة كامبردج في بريطانيا.

– مريم: إنّه من أشهر علماء الفيزياء النظريّة. أعرف ذلك جيدًا، وأعرف أكثر من ذلك عن حياته. لقد قرأتُ الكثير عنه.

– المعلّمة نعيمة: وهو حائز على كثير من الجوائز العالميّة، كما أن له كتبًا مهّمة جدًّا في الفيزياء النظريّة.

يعلو الخجل وجه ستيفن هوكينغ، ويقول بتواضع: الأهمّ من ذلك أنّني أحارب المرض منذ 54 سنة، ولا أزال مصمّماً على الانتصار عليه حتى آخر لحظة من حياتي.

– مريم بفضول وخجل: ولكن ما مرضكَ بالضّبط؟

– ستيفن هوكينغ: أُصبتُ بمرض نادر اسمه (التّصلّب الجانبيّ الضّموريّ)، توقّع الأطبّاء أن أعيش لمدّة سنتين فقط، ولكنّني كما ترين لا أزال على قيد الحياة، فيما بعد أُصبتُ بالتهاب في قصبتي الهوائيّة، ففقدتُ القدرة على الكلام، إلى جانب إصابتي بمرض منعني من تحريك قدمي أو ذراعي. ولكنّني لا أزال أرغب في الحياة وفي الانتصار عليها.

– المعلّمة نعيمة بإعجاب وتقدير: الشّجعان فقط هم من ينتصرون على ضعفهم. وأنتَ إنسان شجاع جدًّا يا دكتور ستيفن هوكينغ.

– مريم: أنتِ شجاعة أيضًا.

– أبي: إذن عليكِ أن تتصري على حزنكِ.

– ستيفن هوكينغ: تستطيعين أن تعبّري عن حزنكِ على رحيل جلال بتقديم العون لأمثاله من البشر بدل أن تقرّري أن تموتي.

– مريم: لكنّني عاجزة تمامًا عن الحركة، فكيف يمكن أن أساعد غيري؟!

– ستيفن هوكينغ: عقلكِ في كامل طاقته وقدراته، تستطيعين أن تساهمي في تدريس زملائكِ من مرضى (متلازمة داون)، وأن تبسّطي لهم المعلومات كي يتعلّموها.

– أبي: هذه فكرة رائعة.

– مريم: وهل سيعرف جلال أنّني أقوم بهذا العمل لأجله؟

– المعلّمة نعيمة: بكلّ تأكيد.

– مريم بحماس: إذن سأفعل ذلك.

– ستيفن هوكينغ: متى؟

– مريم بحماس: غدًا أبدأ في ذلك إن شاء الله.

– ستيفن هوكينغ: وماذا عن الكرسي الرّماديّ الذي تتنقلين بوساطته؟

– مريم: سيكون أداتي للحركة لعون غيري ممّن يحتاجون إلى مساعدتي لهم.

– ستيفن هوكينغ: هكذا هم أصحاب المقاعد الرّماديّة يمتلكون الشّجاعة والقوة والحبّ.

– أبي بثقة وإيمان: ولذلك هم ينتصرون على ضعفهم.

رحلة إلى المستقبل

اقترح ستيفن هوكينغ أن نقوم برحلة إلى المستقبل عبر الفجوة النّورانيّة؛ إذ نالت اهتمامه، وقرّر أن يقوم بدراسة معمّقة لها ليعرف سرّ قدرتها العجيبة على الانفتاح على الأزمان والأماكن، وعلى نقل الأجساد البشريّة وغير البشريّة عبرها.

وتوقّع أن تصل نتائجه إلى اكتشاف نظريّة تغيّر مسار الفيزياء في التّاريخ البشريّ دون أن يدري أن والدي قد سبقه إلى الاكتشاف الذي يصبو إلى الوصول إليه، وقد سمح والدي له بأن يزور هذه الفجوة في أيّ وقت يريده لأجل استيفاء أبحاثه العلميّة عن الكون وعناصره وأزمانه، إلّا أنّه ظلّ متكتّماً على سرّ اكتشاف هذه الفجوة خوفًا من أن تُفتح عليه أبواب الشّر والمطاردة من الأشرار إن باح بسرّ الفجوات النّورانيّة لستيفن هوكينغ.

في رحلتنا مع ستيفن هوكينغ إلى المستقبل كان أبي قلقًا من الضّياع في المستقبل؛ لأنّه لم يسافر إليه أبدًا من قبل، لكنّ ستيفن هوكينغ كان يطمئنه باستمرار؛ لأنّه يستطيع التّعامل مع معطيات المستقبل وفق نظرياته ومعلوماته الفيزيائيّة.

أراد ستيفن هوكينغ أن نقوم برحلة بين المجرّات لنكتشف عوالمها وأزمانها المتفاوتة، ولكنّ أبي صمّم على أن تقتصر رحلتنا على زيارة ذوي الإعاقات في المستقبل لنرى ما أنجزوه وحقّقوه.

وقد فرحنا عندما رأينا ذوي الإعاقات في المستقبل يعيشون في كرامة وعدل وسعادة، ويتمتّعون بالتّعليم والعمل، ويمارسون حياتهم بشكل طبيعيّ، ويتزوّجون، وينجبون بعيدًا عن العزل والإقصاء والاحتقار.

في المستقبل هم يمارسون أدوارهم الطّبيعيّة والإنسانيّة كاملة، ويشاركون في تنمية المجتمع، ولهم مقاعد في البرلمان والمؤسّسات والمنظّمات وكافة التّشكيلات الحكوميّة والأهليّة، كما أن لهم حقوق التّعلّم والتّدريب والتّأهيل، والأماكن جميعها مؤهّلة لاستقبالهم وللتّعامل مع احتياجاتهم.

وهم في المستقبل ليسوا أقلّ حظًّا، ولكنّهم مختلفون، والمجتمع يجيد التّعامل مع اختلافاتهم عن سائر أفراده.

أعجبنا المستقبل، ورغبنا في أن نظلّ فيه، ولكنّ أبي صمّم على عودتنا إلى حاضرنا، وحرّضنا على أن نصنع مستقبلًا مشابهًا للمستقبل الذي رأيناه في رحلتنا الزّمنيّة، فعدنا إلى بيت ديمة فرحين مستبشرين؛ لأنّنا نعرف أن المستقبل يحمل الأجمل لنا.

***

رحلة إلى نهاية المستقبل

لقد ظلّ ستيفن هوكينغ راغبًا في أن يرى المزيد من القادم من المستقبل، ولذلك حفّزنا جميعًا على زيارة نهاية المستقبل لنرى العوالم كيف تكون عندئذٍ، وقد نجح في تحريضنا على الإلحاح

على والدي لأجل تحقيق هذه الرّغبة، فوافق أبي على ذلك بحذر وتحفُّظ، واشترط أن نرى من نهاية المستقبل ما صار عليه حال ذوي الإعاقات في العوالم المستقبليّة لا أكثر، فوافقنا على شرطه هذا مكرَهين.

وفي اليوم التّالي المحدّد للسّفر انزلقنا في الفجوة النّورانيّة بسرعة فائقة، لنكون في حضرة طبيب أحياء وهندسة جينات، لقد كان عند وصولنا إليه في لقاء مصوَّر عبر أجهزة متطوّرة تنقل محاضرة له لتُذاع عبر مجرّات الكون، وقد كان يتكلّم عن إنجازات البشريّة في حقول الأحياء والطّب والأمراض والجينات والوراثة، وذكر صراحة أنّ البشريّة قد استطاعت منذ أكثر من ألف عام أن تنتصر عبر هندسة الجينات على الأمراض والعاهات الوراثيّة جميعها، وبذلك انقرض مفهوم المرض والإنسان الذي يعاني من إعاقة ما.

لقد استطاع البشر أن يهندسوا جينات أبنائهم؛ فاختاروا ما أرادوا لهم من صفات القوّة والصّحة والذّكاء والجمال والملكات، ونبذوا ما كرهوا من صفات المرض والقبح والعجز والضّعف.

أصابنا الذّهول ممّا رأينا بعد أن أدركنا أنّه لن يكون هناك بشر من ذوي الإعاقات في نهاية المستقبل.

– ديمة بدهشة: هل هذا يعني أنّه لن يكون لنا وجود في المستقبل؟

أبي بتأثّر واضح على ملامحه: نعم، فلا وجود في المستقبل لبشر يعانون من نقص أو عاهات أو علل أو أمراض.

ديمة بحيرة: وهل هذا أمر جيّد يا أبي؟

أبي: أعتقد ذلك.

لم نستطع أن نجزم إن كان ما رأينا في نهاية المستقبل أمرًا جيّدًا أم لا، ولكنّنا عدنا جميعًا إلى بيت ديمة، ونحن نشعر بذهول ما، ولا نعرف أعلينا أن نفرح أم نحزن لما اكتشفناه في المستقبل، وهل انتخاب بشر بصفات محدّدة هو ظلم للعِرق البشريّ؟ أم نعمة يجود العلم بها على البشريّة جمعاء؟ أبي قال لنا إنّ علينا أن ننسى هذه الرّحلة، وأن نركّز على أن الهدف من رحلاتنا جميعها هو أن نجيد التكيّف مع ظروفنا الصّحيّة الخاصّة، وأن نستمتع بحياتنا على الرّغم من إعاقاتنا.

عندها شعرنا جميعًا بنوع من الرّاحة، وهجرنا التّفكير في المستقبل بما فيه من انتخاب بشر بصفات معدَّلة، وهتفنا جميعًا لأبي قائلين: مرحى يا أعظم عالم في الدّنيا!

***

لم يعد ستيفن هوكينغ إلى جامعة كامبردج وحده، بل أخذ رامزًا معه؛ فقد أدهشه بقدرته على حلّ المعادلات الرّياضيّة، فأجرى له اختبار ذكاء، فاكتشف أنّ ذكاءه هو في معدّل ذكاء العباقرة، فعلى الرّغم من أنّه يعاني من مرض (التّوحّد)، فإنّه مصاب بصنف من فئة (اسبرقز) الذي هو من فئة المتوحّدين العباقرة الذين يستطيعون أن يبدعوا إن وُهبوا الفرصة الملائمة لذلك.

اقـترح سـتيفن هوكينـغ عـلى والـدي أن يسـمح لـه باصطحـاب رامـز معـه إلى جامعـة كامـبردج حيـث سـيوفّر لـه منحـة ليـدرس علـم الرّياضيّـات، فوافـق أبي عـلى هـذا العـرض بعـد أن أقنـع أسرة رامـز بذلـك، ثـم سـافر معهـما برفقـة أمّـي عفـاف إلى بريطانيـا كـي يطمئـنّ عـلى حسـن التّرتيبـات المتّخـذة لدراسـة رامـز، وعندمـا رضي وأمّـي عفـاف عـن المعطيـات والتّرتيبـات كلّهـا عـاد إلى بيـت ديمـة متمنّيًـا التّوفيـق للعبقـريّ الصّغـير رامـز.

نحـن نفتقـد صديقنـا رامـزًا، ولكنّنـا سـعيدون؛ لأنّـه قـد حظـي بفرصتـه أخـيرًا، وانطلـق إليهـا مـن بيـت ديمـة، وبذلـك تبدّلـتْ أقـداره مـن طفـل مهمَّـش مـن ذوي الإعاقـات إلى عبقـريٍّ صغـير يـدرس في جامعـة كامـبردج العالميّـة، ويـودّع أصدقـاءه بكلمتـه الشّـهيرة: تـك تـك تـك.

الفصل العاشر

الأمير المسحور

«بلا قيمـة معنويّـة لـن تكـون لديـكَ قيمـة في عـالم واسـع، ولكـن إذا قـدَّرتَ نفسـكَ، وعرفـتَ قيمتـكَ الدّاخليّـة، وبحثـتَ داخـل نفسـكَ، سـتجد السّـعادة حتـى لـو كنـتَ محبوسًـا وراء قضبـان السّـجن».

نيكولاس فوجيسيك

جان تجد أخناتون

اسمي جان، أنا مريضة بمرض (التّوحّد)، لقد عجز الأطبّاء عن تشخيص مرضي هذا، وصنّفوا حالتي على أنّها جنون، أمّا أقاربي وجيراني فقد قالوا إنّني فتاة ملعونة من بنات الشّيطان؛ لأنّ شعري أحمر، وعلى وجهي الكثير من النّمش الأحمر، وفي إنجلترا وأوروبا كانوا يعتقدون أنّ الفتيات حمراوات الشّعر هنّ من بنات الشّيطان.

لقد تخلّى والداي عنّي، وألقيا بي في مصحّة نفسيّة في إحدى ضواحي لندن حيث كان الأطبّاء والممرضون والمشرفون على المصحّة يعاملونني مثل حيوان شريّر بالضّرب والإيذاء والتّعذيب بشتّى أنواعه، بعد أن عجزوا عن تشخيص حالتي؛ إذ لم يكن العلم قد شخّص مرض (التّوحّد) بعد.

كنتُ هناك مع غيري من الكثير من المرضى نعيش في عذاب

مستمرّ. وقد نجوتُ من هذا العذاب بفضل ديمة والأصدقاء الذين أنقذوني من ذلك المكان، واصطحبوني معهم إلى بيت ديمة حيث الحبّ والأمان والأمل.

لا أعرف شيئًا عن أسرتي ولا عن الماضي الذي عشته، ولا أريد أن أعرف شيئًا عن ذلك؛ فأنا أعيش في حالة ذهنيّة خاصّة تقوم على الرّغبة في الفرديّة والانطواء على الذّات، أحبّ الوحدة كثيرًا، ولا أملك مهارات التّواصل مع الآخرين، بالكاد أعرف بضع كلمات أستخدمها في كلامي، أحيانًا أشعر بأنّني أعيش في عالم آخر غير هذا الذي أعيش فيه.

أجد صعوبات في التّذكّر أو الكلام أو اللّعب أو التّواصل، بل أحيانًا أنسى اسمي، ولا أردّ على من يناديني به. يأخذني الأصدقاء معهم في رحلاتهم الزّمنية جميعها، ولكن قليلاً ما أتحدّث مع أحدهم، أو أتفاعل مع قصصهم؛ فأنا أعيش في عالم آخر تمامًا.

هذا هو مرضي، إنّه يعزلني في عالم بعيد، أحبّ أشياء غريبة، مثل ترتيب أشيائي الخاصّة على شكل أفقي، أو ترتيب المكعّبات على شكل عاموديّ، وأغضب جدًّا إن أفسد أحدهم هذا النّظام الذي أرتّب الأشياء وفقه، وأحبّ أن أحفظ كلمات بعينها، وأن أردّدها دون توقّف، لا تسألوني لِمَ أفعل هذه الأشياء، فلا جواب عندي على ذلك، ولكنّني أعرف أنّ هذه هي ملامح مرض (التّوحّد) الذي يلازمني منذ طفولتي.

من الصّعب عليّ أن أتقبّل الأصدقاء، ولكنّني على الرّغم من ذلك أشعر بالأمن في بيت ديمة، وأحبّ كلّ من فيه حتى ولو كنتُ عاجزة عن التّواصل المباشر مع مَن فيه من الطّلبة.

هناك الكثير من الأصدقاء المَرْضَى بمثل مَرَضِي في هذا المكان، ولكنّنا عاجزون عن التّواصل؛ فكلّ واحد منّا له سمات نفسيّة خاصّة ومعقّدة بسبب هذا المرض اللّعين الذي يحبسنا داخل أنفسنا دون رفقة أو صحبة.

***

مسكينة هي جان؛ فهي تعيش في غربة داخل نفسها، ولا تستطيع أن تتواصل مع أيّ أحد، وكلّما تلصّصتُ على حديثها مع نفسها أدركتُ كم هي حزينة؛ لأنّها وحيدة. أعتقد أنّ مرضي أقلّ قسوة من مرضها.

حدّثتُ أبي عن حديث جان مع نفسها، فطلب منّي أن أتلصّص على أفكارها مرّة أخرى؛ لعلّها تمدّني بالمزيد من المعلومات التي قد تفيد في علاجها، حاولتُ أن أفعل ذلك، ولكنّ جان توقّفتْ عن الحديث مع نفسها، فلم أعد أستطع التّلصّص على ما يدور في أعماقها من أفكار ومشاعر وأمنيات.

والدي بحث عبر الفجوة النّورانيّة عن علاج لمرض التّوحّد، ولكنّه لم يحظ بنتيجة إيجابيّة لبحثه، وعندما بحث في الماضي وجد أنّ الطّب المتقدّم في الحضارة الفرعونيّة قد قدّم وصفًا لمرض يشابه

مرض (التّوحّد)، وذلك في عصر الفرعون أخناتون، ولذلك قرّر أن نزوره جميعًا بصحبة جان بحثًا عن علاج لها في ذلك الزّمن الموغل في القدم.

في صبيحة يوم مشمس جميل انزلقنا جميعًا عبر الفجوة النّورانيّة حتى وصلنا إلى معبد فرعونيٍّ عملاق، حيث هناك رجل يتعبّد في قلبه.

هذا الرّجل هو أخناتون، لقد حدّثه والدي عن مرض جان، وترجمتْ عنزتي شقراء الحديث الدّائر بينهما، وقد رحّب أخناتون باستضافة جان لعلاجها من قِبَل أطبائه الذين يعالجونه من حالة الصّرع التي تنتابه من فترة إلى أخرى.

قرأتُ في أعماق جان السّعادة بذلك المكان الكبير الفسيح، وقد أخذتْ تلهو بين أعمدة المعبد بكلّ فرح وسرور، ففرح أخناتون بها، وتفاءل بشعرها الأحمر النّادر الذي لم يرَ مثله من قبل، وقرّر أن يتبنّاها، لتكون أختًا لابنه توت عنخ آمون.

أبدتْ جان سعادتها ورضاها باقتراح أخناتون في البقاء في قصره للاستشفاء، وجلستْ في حضنه، وقلّدتْ جلسته الفرعونيّة بكلّ دقّة، ففرح أخناتون بابنته الجديدة غريبة الأطوار، وطلب من حرسه أن يرسلوا في طلب زوجته نفرتيتي كي تتعرّف على ابنتهم الجديدة.

***

عدنا إلى بيت ديمة فرحين؛ لأنّ جان الوحيدةَ قد وجدت السّعادة أخيرًا. وظلّ والدي يزورها في قصر أخناتون، ويخبرنا بأنّ حالتها الصّحيّة تتحسّن، وقد بدأت تلفظ اسمها الجديد بشكل جيّد، فقد اختار لها أخناتون اسم نفر نفرو، أيّ الجميلة جدًّا، كما أصبح عندها صديقة في القصر تلعب معها، وتتحدّث إليها أحيانًا ببعض الكلمات الفرعونيّة التي بدأت تتعلّمها، وقد طلب أبي من أخناتون أن يرسل معه بعض أطبّاء قصره ليقوموا بعلاج الأطفال المرضى بمرض (التّوحّد) في بيت ديمة، وقد وعده أخناتون بتلبية طلبهم عندما تُشفى جان من مرضها تمامًا، ويتأكّد من أنّ العلاج الذي قُدّم لها قد كان ناجعًا.

***

الأمير المسحور في بيت ديمة

انتهى العام الدّراسيّ، ونجحنا جميعنا في دروسنا، وعاد أبي إلينا من إحدى رحلاته في الفجوة النّورانيّة بضيف غريب، وجهه مثل وجه أمير من أمراء القصص والرّوايات، فهو بشعر أشقر ناعم، وملامحه جميلة، وبشرته رقيقة، وعيناه تلمعان بضحكة عميقة، ولكّنه بدا لنا جميعًا مثل أمير مسحور، مسّته ساحرة شريرة بلعنتها، فحوّلته إلى كائن آخر، فقد كان هذا الشّاب الوسيم دون يدين أو قدمين، وكان يمشي على الأرض بقدم صغيرة ناتئة من أسفل جسده.

لقد أدهشنا هذا الرّجل الذي بدا مثل الأمير المسحور في قصص السّاحرات الشّريرات، ولم نعرف ماذا أصابه ليبدو على هذه الحال، ولكنّه كان على الرّغم من ذلك شديد السّعادة بالحال التي هو عليها.

لقد عرفنا حكايته فيما بعد عندما قام والدي باستئجار القاعة الكبرى في المدينة؛ لأجل عقد لقاء جماهيريٍّ مع هذا الشّاب، ودعا أُسر أطفال بيت ديمة، وجمعًا غفيرًا من أهالي المدينة كي يقابلوا هذا الشّاب المعجزة الذي لم يستسلم لإعاقته أبدًا.

كان الحضور غفيرًا، وقد استحوذ الشّاب المتحدِّث على اهتمام الجميع على امتداد ثلاث ساعات قضاها في الحديث عن نفسه.

فعرفنا أنّه من أصول صربيّة، ولكنّه وُلد في مدينة ملبورن في أستراليا، ثم انتقل للعيش في أمريكا، وقد وُلد مصابًا بمرض نادر اسمه (متلازمة رباعيّ أميليا)، وهو مرض يُفقد الإنسان أطرافه الأربعة منذ ولادته.

وقد قابله مجتمعه منذ صغره بالسّخرية والاحتقار، فحاول أن ينتحر مرتين، مرّة في سنّ الثّامنة، ومرّة ثانية في سن العاشرة عندما حاول إغراق نفسه، ثم تراجع عن هذه الفكرة، وقرّر أن ينتصر للحياة، وأن يتغلّب على إعاقته عبر الإيمان بالله، فقد آمن بمنهج لخّصه بقوله: لقد عرفتُ الغرض من وجودي في هذه الحياة، كما عرفتُ سبب

الحالة التي أنا عليها الآن من إعاقة، وهنالك دائماً سبب لما أنتَ عليه الآن من سوء.

اسمه «نيكولاس فوجيسيك»، والأصدقاء يسمّونه نيك، وقد قرّر منذ طفولته أن يحمل التّفاؤل لكلّ أمثاله من ذوي الإعاقات؛ ولذلك أنهى دراسته المدرسيّة والجامعيّة بتفوّق، وأسّس منظّمة (الحياة دون أطراف)، وبدأ بعقد المحاضرات التي تناقش قضايا المراهقين والشّباب لا سيما من ذوي الإعاقات، وكرّس وقته كاملًا للسّفر حول العالم ومقابلة الشّباب في كلّ مكان، ودعم ذوي الإعاقات لأجل تحريضهم على التّمسّك بالحياة، والانتصار على إعاقاتهم، فأصبح من أشهر ذوي الإعاقات في العالم كلّه، وتابعه الملايين من البشر عبر القارات جميعها.

لقد أذهل نيكولاس فوجيسيك الجمهور الذي أعاره اهتمامه وحسن استماعه، وصفّق له طويلاً، ثم انهال عليه بالأسئلة والإطراء والتّقدير لشجاعته وصبره.

وفي نهاية اللّقاء قام نيكولاس فوجيسيك بتسليمنا شهادات نجاحنا في السّنة الدّراسيّة الحاليّة، وقد كنّا سعيدين به، وكلّ واحد منّا تسلَّم شهادته منه حَضَنَه؛ لأنّ لا يدين له كي نصافحه عبرها، وكان فرحًا كثيرًا بمحبّتنا، ويقول لنا بالعربيّة بلكنة أجنبيّة: مبروك.

***

أُعجب نيكولاس فوجيسيك بمدرسة بيت ديمة، ودعانا جميعًا لمرافقته في جولته الحاليّة في الكثير من دول العالم لأجل دعم ذوي الإعاقات، وحثّهم على الانخراط في المجتمع. وقد وافق والدي على تلبية دعوته لنا، ورافقتنا معلمات المؤسّسة جميعهنّ في هذه الرّحلة؛ لأنّهن كنّ في عطلة صيفيّة إلّا المعلّمة زينب التي اعتذرتْ عن مرافقتنا في الرّحلة؛ لأنّها ستذهب في إجازة شهر عسل مع زوجها المعلّم آدم.

طوّفنا في كثير من دول العالم مع نيكولاس فوجيسيك الذي يفضّل أن نناديه باسم نيك، وقد تعلّمنا منه معنى الصّبر والإيمان بالله، كما اكتشفنا أنّنا لسنا الوحيدين في هذا العالم الذي نعاني من إعاقاتنا، بل هناك الكثير من إخواننا في الإنسانيّة الذين يعانون ممّا نعاني منه، ولا معين لهم أو نصير.

قد طوّفنا معه في كثير من الأزمان عبر الفجوة النّورانيّة التي أدهشته، ورأى فيها نعمة من نعم الله عليه التي وهبها له كي يسعد بها، ويُسعد معه غيره من البشر؛ فزرنا معه الشّاعر اليوناني الشّهير هوميروس الذي نظم أجمل الملاحم الشّعريّة في التّاريخ الإغريقي وهو أعمى لا يبصر نور الحياة، ثم زرنا العالم الأصمّ توماس ألفا إديسون الذي اخترع المصباح الكهربائيّ، وأضاء الدّنيا، كما اخترع وطوّر أكثر من 1200 اختراع، من بينها آلة التّصوير السّينمائيّ، والآلة الكاتبة، وأشعّة إكس، وجهاز قياس درجة حرارة الجو، وغيرها من المخترعات.

وحضرنا عرضًا موسيقيًّا لإحدى المقطوعات الموسيقيّة للموسيقار الأصمّ الشّهير لودفيغ فان بيتهوفن الذي لُقّب بأبي السّمفونيّات، وأخيرًا بعد رحلات طويلة طوفنا فيها عبر الأزمان، قرّرنا أن نجعل محطّتنا الأخيرة عند الأديب العربيّ الكبير مصطفى صادق الرّافعيّ الذي حقّق شهرة أدبيّة عظيمة بقلمه المبدع على الرّغم من إصابته بالصّمم في الثّلاثين من عمره، وقد تجاذب أطراف الحديث مع نيك، وحاوره في كثير من الأمور، فأبدى كلّ منهما إعجابه بالآخر، وتوّلت عنزتي شقراء مهمّة التّرجمة بينهما.

وأخيرًا الحبّ

كنّا نظنّ أنّ زيارة الأديب العربيّ مصطفى صادق الرّافعي الذي عانى من إعاقة الصّمم طوال حياته هي محطّتنا الأخيرة في جولتنا الرّائعة مع نيك، ولكنّنا وجدنا أبي يهبط بنا جميعًا عبر الفجوة النّورانيّة في جزيرة هاواي في المحيط الهادي، اعتقدنا أنّ هبوطنا في هذا المكان كي يقدّم نيك محاضرة في إحدى مؤسّساتها الدّاعية له، ولكن تلك الفتاة الجميلة الرّشيقة التي كانت في استقبالنا غيّرت اعتقادنا هذا.

اسمها كانا مياهارا، وهي خطيبة نيك التي ستتزوّج به في القريب

العاجل بعد قصّة حبٍّ طويلة بينهما؛ فقد أحبّته على الرّغم من الإعاقة التي يعاني منها، وهي لا تعاني من أيّ إعاقة. لقد أدركنا أنّنا في هذا المكان بترتيب مسبق بين والدي ونيك لنحضر حفل زواجه من خطيبته كانا الجميلة.

اشترى أبي الملابس الجميلة لنا، فبدونا جميعًا مثل أسراب من طيور السّنونو الجميلة ونحن نلبس ملابس الفرح البيضاء، ولكنّ أمّي عفاف بقيت الأجمل بثوبها الأبيض الذي جاءت به من الجنة.

قام أبي بدعوة أصدقائنا جميعًا من الأزمان المختلفة، فحضروا جميعًا عبر الفجوات النّورانيّة ليحضروا حفل الزّفاف الذي كان في وسط الطّبيعة الخلّابة في جزيرة هاواي، وكنّا جميعًا شاهدين على انتصار الحبّ على الإعاقة.

عاد نيك إلى كاليفورنيا في الولايات المتّحدة الأمريكيّة؛ ليعيش هناك مع زوجته الجميلة كانا حيث تلقّى على صفحته في موقع التّواصل الاجتماعيّ أكثر من ثلاثة ملايين تهنئة من محبّيه من خمس وعشرين دولة من مختلف أنحاء العالم، وفيما بعد أنجب طفلاً جميلاً كامل الصّحة موفور الجمال أسماه كيوشي.

وبعد انتهاء حفل زواج الأمير المسحور نيك بحبيبته الجميلة كانا مياهارا عدنا جميعًا إلى بيت ديمة سعيدين بهذه الرّحلة

الجميلة وبهذه النّهاية السّعيدة لقصّة حبّ صديقنا الشّجاع نيك.

***

آمنتُ الآن بأنّ الحلم قد يصبح حقيقة، وأنّ الإعاقة هي منحة من الرّب، ولا أزال أنتظر أن أكبر كي أتزوّج عونًا، وننجب طفلًا جميلًا، فأكون أمًّا عظيمة، كما هي أمّي عفاف أمًّا عظيمة، فهذا حلمي الكبير، ولكنّني أضفتُ حلمًا جديدًا إلى حلمي الأوّل الكبير، وهو أنّني أريد أن أصبح معلّمة في يوم ما في بيت ديمة كي أساعد والدي الدّكتور شجاع الورديّ وأمّي الطّبيبة عفاف في إدارة هذا المكان الجميل الذي وهبنا السّعادة والحبّ والرّعاية، ودفعنا نحو الحياة.

لكنّني لم أصبح روائيّة شهيرة كما تمنّيتُ، لكنّ عمّتي نجيبة قد حقّقت نجاحًا كبيرًا عندما نشرتْ رواية بيت ديمة، فتلقّت الكثير من العروض لترجمة هذه الرّواية إلى أكثر من لغة، ولتحويلها إلى فيلم سينمائيّ عالميّ، كما حصلتْ على جائزة عالميّة في كتابة رواية الأطفال، وهذا أمر أسعدني كثيرًا، وجعلني أشعر بالفخر الكبير بعمتي نجيبة الرّوائيّة المبدعة.

أمّا سرّ الفجوة النّورانيّة، فلا يزال أبي يتحفّظ عليه، ويبحث عمّن يحمل راية علمه من بعده ليعطيه سرّ هذه الفجوة وتفاصيل اكتشافاته؛

ليستفيد البشر أجمعون منها، ولكنّه لا يزال يخشى أن تنقلب اكتشافاته إلى وبالٍ على البشريّة شأنها شأن الكثير من الاكتشافات والاختراعات التي كرّسها الإنسان الشّرير لتعذيب غيره من البشر.

أبي وأمّي، أنا أحبّكما كثيرًا

ابنتكما المخلصة: ديمة

البداية

«يمكن لأيّ شخص أن يستوعب إعاقته، وأن يُطلق طاقاته الأخرى الكامنة فيه، فيعيش -على الأقل- حياة طبيعيّة، وقد يسير خطوات متقدّمة نحو الإبداع والإنتاج الوفير».

هيلين كيلر

«كنتُ دائمًا مؤمنًا بأنّ ما حدث لي له سبب عند الخالق سبحانه وتعالى، وكنتُ مؤمنًا بأنّني سأفوز مهما كانت التّحديات».

رون سكالون

المحتويات

الفصل الأول

بيت ديمة 7

اسمي ديمة 8

عنزتي شقراء 13

نظريّة (الانزلاق في الفجوات النّورانيّة) 15

أبي وأسرار القرآن الكريم 21

هدية الأطفال المختلفين 23

فرح ومايكل والحبّ الكبير 28

البحث عن كتاب (الحكايات والعِبَر) 33

المعلِّمة نعيمة والأطفال المختلفون 36

الفصل الثّاني

القادمة من الجنَّة 39

أمِّي عفاف 40

الجنَّة 42

أمّي العطريّة 48

أمِّي في غزَّة 50

أخي سيف 53

الفصل الثَّالث

درب الأحزان 55

الفصل الرَّابع

أرض الرَّحمة 79

شرائح التَّعقُّب 82

عينا ديمة 84

مسابقة التَّكيُّف والسَّعادة والابتكار والإنجاز 89

مجلّة بيت ديمة 93

الحقُّ والفرح 97

عيد ميلاد سوزانا 100

الفصل الخامس

السَّلف الصَّالح 107

بدر الحزين 108

الفصل السَّادس

الأنامل السِّحريَّة 129

فيكي الذّهبيّة 130

القبو الأخرس 133

آن سوليفان: قلب من نور 136

الفصل السَّابع

القدم الرَّاكضة 143

الفصل الثَّامن

نتوءات من نور 159

المعلّم آدم 160

جلال المبتسم 167

الرَّسم بالألم 171

الفصل التَّاسع

المقعد الرَّماديُّ 181

الزّائر المجهول 182

رحلة إلى المستقبل 188

رحلة إلى نهاية المستقبل 189

الفصل العاشر

الأمير المسحور 193

جان تجد أخناتون 194

الأمير المسحور في بيت ديمة 198

وأخيرًا الحبّ 202

البداية 206

كتارا
katara
دار كتارا للنشر
Katara Publishing House
2019

أصدقاءُ ديمة

رواية «أصدقاء ديمة» للفتيان هي رواية انتصار الإرادة والمحبَّة والعمل والعلم والقدوة الحسنة على الإعاقة والعجز والحزن واليأس، وهي رواية البطولة المطلقة لأطفال جميعهم يعانون من الإعاقات المختلفة، وهم يقرِّرون أن يكتشفوا مهاراتهم وقدراتهم وأحلامهم، وأن يعيشوا السعادة والحياة بتفاصيلها جميعًا على الرغم من تجاهل المجتمع لهم، وإصراره الظالم على تهميشهم في ظلِّ رفضه لهم ولوجودهم المختلف عن وجود معظم أفراده ممَّن لا يعانون من إعاقات.

تسعى هذه الرواية إلى تقديم تجربة أخلاقية نفسية اجتماعية جمالية للأطفال حول انتصار ذوي الإعاقات على إعاقاتهم، وهي تبرز هذه التجربة وتضعها تحت مجهر الدراسة والتعامل معها.

د. سناء شعلان

◄ الدكتورة سناء شعلان، أديبة وناقدة وإعلامية أردنية من أصول فلسطينية، ومراسلة صحفية لبعض المجلات العربية، وناشطة في قضايا حقوق الإنسان والمرأة والطفولة والعدالة الاجتماعية، وممثِّلة لكثير من المؤسَّسات والجهات الثقافية والحقوقية، وهي شريكة في كثير من المشاريع العربية الثقافية.

◄ تعمل أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأردنية، حاصلة على درجة الدكتوراه في الأدب الحديث ونقده بدرجة امتياز.

◄ صدر لها نحو 53 مؤلَّفًا منشورًا بين كتاب نقدي متخصِّص ورواية ومجموعة قصصية وقصة أطفال ونصٍّ مسرحيٍّ، ومئات المقالات والأبحاث والدراسات المنشورة.

◄ تُرجمت أعمالها إلى الكثير من اللغات، وحصلت على نحو 63 جائزة دولية وعربية ومحلية نالتها عن أعمالها الأدبية والنقدية.

ISBN 9789927134654